
22
روايات مصرية للجيب
المكتب 19
إدارة المهام الخاصة
النقطة العمياء
Looloo
www.dvd4arab.com
د. محمد سليمان عبد المالك

المكتب 17

هيئة أمنية تم إنشاؤها بقرار رئاسى فى أواخر ثمانينات القرن العشرين لتكون واجهة لمشروع سرى تمتد جذوره إلى السبعينات ؛ وهو مشروع يهدف إلى تطوير جيل جديد من رجال الأمن المصريين ذوى القدرات الخاصة والمهارات الفائقة .. صدر قرار بإلغائها مؤخرًا بعد انكشاف المستور ..

عمر زهران

أحد رجال الأمن السابقين الذين تم رعايتهم منذ الصغر فى إطار المشروع السرى ، وهو أول من اكتشف حقيقة الكيان الأمنى الذى يعمل فيه وتمرَّد عليه .. هناك شريحة إلكترونية مزروعة فى رأسه ، وقد صُنعت فى السبعينات نسخة بيولوجية منه يتخذ حاليًّا هويتها الفرنسية باسم (تيودور أوبان) ..

دينا واصف خبيرة تقنيات من الجيل الجديد الذى نشأ تحت مظلة (المكتب 17) ، وهى أول من خضع لعملية انتزاع الشريحة الإلكترونية جراحيًّا من قاع الجمجمة .. تحب عملها إلى درجة الجنون ، وقد اتخذت هوية جديدة ، وانتظمت فى الدراسة بإحدى جامعات (برلين) ، حتى ظهر ما دفعها دفعًا إلى ساحة الأحداث من جديد ..

العميد / منصور حرب



واحد من الرعيل الأول للمشروع السرى الذى أصبح فيما بعد (المكتب 17) ، وكان موقفه تجاهه محايدًا فى البداية .. هو الأب الروحى لـ (عمر زهران) ، وطليقته (عزة) هى من كانت تقوم بدور والدة (عمر) .. هو حاد الملامح وهادئ الطباع مما جعلهم فى الإدارة يطلقون عليه لقب (الصقر العجوز) ..

اللواء / عفت حفنى



كان من أشد المناهضين لإنشاء المشروع السرى الذى استمات زميله (فهمى زهران) والد (عمر) ، للدفاع عنه وقتها .. ورغم ذلك فقد تم تعيينه رئيسًا للمكتب منذ إنشائه ، إثر اغتيال (فهمى زهران) فى (بيروت) ، حتى إلغائه مؤخرًا ..

كارلا روبرتس



مراسلة أنباء تلفزيونية أمريكية ذائعة الصيت ، اقتربت كثيرًا من كشف حقيقة المشروع السرى المصرى الذى يعد واحدًا من سلسلة مشاريع مماثلة فى العديد من دول العالم ، وهكذا تم فصلها من عملها ، وخضعت لتجربة مسح ذاكرة فى (باريس) ويتم الآن علاجها صحيًّا فى إحدى مصحات (نيويورك) للأمراض النفسية ..

مادلين تشايمر

خبيرة تقنيات فرنسية ورئيس مجلس إدارة أكبر شركة اتصالات أوروبية ، مصابة بشلل فى قدميها إثر حادث قديم يجبرها على التحرك فوق مقعد طبى .. ابنة (دوبويه تشايمر) الذى أسهم بالشق التقنىّ فى المشروع السرى القديم ، و(مادلين) هى الشرارة التى انفجرت منها قنابل الحقيقة العنقودية تباعًا ..

رجل الليل



شخصية كارتونية لطفل بطل .. تعلق بها أطفال الثمانينات ، واتخذها رجل غامض ستارًا للتدخل فى المشروع السرى منذ بدايته ، حتى الآن !!!

1ـ المخبأ ..

شارع خلفى ضيق فى (تل أبيب) ..

الليل المتأخر والأمطار الغزيرة المنهمرة فوق الأسفلت ، وفوق أسقف السيارات المتراصة على أحد جانبى الشارع ، جعلا الشارع مقفرًا تمامًا ..

إلا ..

من شبح يقف فى مدخل إحدى البنايات ، مسندًا ظهره إلى الحائط ، ينفث دخان سيجارته فى توتر ، وينظر فى ساعة معصمه بحركة عصبية بين الفينة والأخرى ، ثم يعاود التدخين والقلق والانتظار ..

حتى أتى الصوت بغتة من جهة الشارع المطير .. صوت يهمهم ببضع كلمات تشى باضطراب وسرعة .. صوت رجل بللته مياه الأمطار ، ظهر بغتة عند مدخل البناية ، وسرعان ما اختفى من جديد .. فما كان من المنتظر بالداخل إلا أن ألقى ما تبقى من سيجارته ، وغادر المدخل على عجل نحو الخارج ، مقلبًا عينيه فى ظلمة الشارع ، بينما البرق يضرب قلب السماء المظلمة مع هزيم رعد عظيم ، والأمطار تواصل انهمارها لتغرق ملابسه

الجافة نوعًا ، حتى رأى هدفه يقف بجوار إحدى السيارات ، يرتعد من شدة البرد ، رغم ارتدائه ملابس شتوية ثقيلة ..

ـ ظننت لوهلة أنك لن تظهر الليلة .. لماذا تأخرت يا (مايرز) ؟!

قالها الذى كان ينتظر عند المدخل بنبرة منزعجة ، فباغته الواقف يرتعد داخل معطفه بالهتاف المرتاع ، وهو ينظر يمنة ويسرة فى رعب :

ـ ش ش ش .. من فضلك لا تذكر اسمى علانية هكذا .. إن الحيطان لها آذان يا أدون (عزرا) ..!!

مط (عزرا أهارون) ـ رجل (الوحدة 8200) ـ شفتيه بامتعاض ، قائلاً فى لهجة لم تخل من ازدراء :

ـ ولكنك ذكرت اسمى بدورك يا .. يا صاح ..!

ابتلع (مايرز) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول باضطراب لا ينى يتعاظم :

ـ أعتذر عن هذا يا أدون (عز ..) .. أعنى ....!!

قاطعه (عزرا) بمزيد من الضجر :

ـ كف عن هذا ودعنا نتحدث فيما يفيد ..

وأشار إلى مدخل البناية خلف ظهره مستخدمًا إبهامه ، ومردفًا :

ـ .. لماذا لم تتبعنى إلى حيث كنت أختبئ ؟! إنه أكثر هدوءًا وجفافًا كما يمكنك أن ترى ..

واصلت فرائص (مايرز) ارتعادها ، وهو يقول محاولاً السيطرة على خوفه عبثًا :

ـ لا حاجة بنا إلى هذا .. يمكن أن يكون هناك من يتربص بنا .. أو .. ربما يكون هناك جهاز تنصت مزروعًا فى أى مكان قريب .. أنت تعلم أن الحيطان لها ...

استخدم (عزرا) كفيه ، وهو يعاود مط شفتيه قائلاً بمزيد من الامتعاض :

ـ حسن .. حسن .. كما تريد يا (مايرز) .. إن الكرة لا تزال فى ملعبك على أى حال ..

صمت منتظرًا ردًا من (مايرز) ، لكن الأخير لم ينطق وهو يواصل النظر يمنة ويسرة كالممسوس ، فاستحثه (عزرا) بقوله :

ـ .. هل الكرة فى ملعبك يا عزيزى أم إننى على خطأ ؟!

صمت (مايرز) للحظة استجمع فيها شظايا أفكاره وشجاعته ، وهزم الرعد بقوة مجددًا قبل أن يتساءل :

ـ هل أنت واثق من أننا سوف نفعل ما هو صواب أم ... ؟!

قاطعه (عزرا) مرة أخرى ، فى مزيج من الضجر البالغ والعصبية المفرطة :

ـ كلاً .. كلاً .. لن نخوض فى هذا الحديث مجددًا .. لقد تكلمنا فى كل شىء عشرات المرات ، وقد اتفقنا على أن نتقابل الآن ، هنا ، لكى نحوّل الكلام إلى فعل .. لا لكى نعيد ما قلناه مرارًا وتكرارًا ..

ـ أعلم ، ولكن ...

ـ أنا الذى أعلم ما سيتلو هذه الـ (لكن) اللعينة .. أعلم أنك خائف من قمة رأسك حتى أخمص قدميك ، لكنى قلتها لك مسبقًا .. لا ربح دون مجازفة ، والربح العظيم ينطوى على مجازفة عظيمة .. كان يمكنك أن تخبرنى أنك لا تريد الدخول إلى قلب اللعبة من البداية ، وأنك ترفض النقود التى أعرضها عليك ، بدلاً من أن توافقنى ، لأجدك تتملص منى هنا ، والآن فى هذا الوقت الحرج ..

لهث (عزرا) بعد أن أنهى استطراده ، والأمطار تعمى عينيه المحمرتين من الغضب ، بينما (مايرز) لا يزال يستجمع شتات كلماته وأفكاره المبعثرة قائلاً :

ـ لو انكشف الأمر فلن يكتفوا بنقلى من أرشيف الإدارة .. ربما يحيلوننى إلى محاكمة عسكرية ، بل وربما قاموا بتصفيتى دون محاكمة .. أنت تعرفهم أكثر منى ..

وافقه (عزرا) بهزة من رأسه وقال :

ـ نعم ، أعرفهم أكثر منك .. وأعرف كل ما يمكن أن يحدث لى ولك .. ولهذا كان المقابل الذى نتقاضاه باهظًا يا عزيزى .. أتعرف لماذا ؟! لكى يتسنى لنا الهروب فى الوقت المناسب ، قبل أن ينكشف كل شىء ..

وضم (عزرا) قبضته فى غضب ، لِيَلْكم بها الهواء فى غيظ مستطردًا :

ـ .. اللعنة .. كان يجب أن أعرف أنك سوف تخذلنى .. لم يكن من الصواب أن أراهن عليك يا (مايرز) .. أنت أجبن من أن تفعل ما طلبت منك فعله .. اعذر لى غبائى فى اعتمادى على فأر مذعور مثلك ..!!

وهمَّ (عزرا) بالاستدارة مبتعدًا ، قبل أن يباغته قول (مايرز) :

ـ الملف معى الآن ..!

بوغت (عزرا) بما قال ، وانعكس البرق على ملامحه المتجهمة ، إذ استدار نحوه سائلا ، والرعد يدوى على خلفية صوته المتسائل :

ـ ماذا ؟! معك الآن ؟! أين ؟!

مد (مايرز) يده المترددة ، المرتعدة ، إلى داخل معطفه الثقيل ، ليخرجها ممسكة بكيس من النايلون ، يغطى ملفًا متخمًا بالأوراق ..

استغرق (عزرا) بضع ثوان نظر خلالها إلى اليد الممدودة بالكيس المغلق نحوه ، وقد صنعت مياه الأمطار المتساقطة فوقه خطوطًا دقيقة ..

ـ هذا هو الملف المطلوب ..

قالها (مايرز) فى خفوت ، فضيّق (عزرا) عينيه وغمغم :

ـ حقًا ؟!

ـ بحثت عنه فى الأرشيف القديم طوال الأسبوع الماضى ، لم أكن لأرفض عرضًا مغريًا كالذى عرضته على بسهولة .. لكن ..

انفرجت أسارير (عزرا) ، وهو يهتف فى حبور لم يستطع إخفاءه :

ـ أعلم ، أعلم .. النقود التى عرضتها عليك فى مأمن ، أمهلنى فقط يومين و ...

ـ كلا ، الدفع أولًا .. أنت لا تعلم مدى الخطر الذى أواجهه ..

ـ لقد حصلت على مبلغ العربون بالفعل يا (مايرز) ، عشرة آلاف الدولار ، وبقية نصف مليون الدولار التى اتفقنا عليها ستكون فى حسابك البنكى بعد يومين على الأكثر ، عندما أتقاضى بقية النقود ..

ران عليهما الصمت إلا من وشيش الأمطار ، (مايرز) مستغرق فى التفكير محاولاً أن يتغلب على الهلع المعربد فى أعماقه كوحش يلتهمه ، و(عزرا) يحاول أن يطمئنه ، وأن يكسب المزيد من ثقته فقال له :

ـ .. أنت تعلم أننى لا أملك هذا المبلغ الآن ، ولا حتى عشرة بالمئة منه .. لكننى أعطيك كلمتى ، بعد يومين فقط وستتقاضى بقية حقك ..

ـ 48 ساعة فترة كافية للغاية لكى يطير فيها عنقى ..!

ـ لا تكن أحمق .. من سيفتش وراءنا ؟! إنها صفقة رابحة للغاية يا عزيزى ..

حاول (مايرز) أن يطمئن نفسه فسأل :

ـ بعد يومين فقط ؟!

ـ وربما قبل هذا الموعد إن تسنّى لى الإبكار ..

هزّ (مايرز) رأسه بعد صمت قصير :

ـ لا بأس .. يمكننى أن أنتظر ..

مد (عزرا) يـده إلى الملف وأطبقـت عليـه أصابعه ، وعندها فقط شعر بالاطمئنان ..

لم تختف اللهفة من نبرات صوته وهو يسأل (مايرز) :

ـ أهو النسخة الأصلية ؟!

ـ ماذا تظننى ؟! مجنونًا ؟!

ـ ليكن ، نسخة مصورة ستفى بالغرض .. ولكنى أؤكد لك أنـه حتى لو اختفت النسخة الأصلية ، فلن يفتقدها أحد .. هذه أوراق بلا قيمة الآن يا عزيزى ..

غمغم (مايرز) :

ـ لنأمل هذا ..

ضحك (عزرا) وهو يضربه فى ذراعه مازحًا :

ـ دع عنك القلق ، واستعد لعهد جديد من الثروة يا صديقى .. انتظر مكالمتى من خارج (إسرائيل) فـى غضون يومين علـى الأكثر كما اتفقنا ..

تنهد (مايرز) :

ـ سأنتظر ..

وافترقا ، كلٌ فى طريق ..

انعطف (عزرا) إلى شـارع جـانبى مظلـم آخـر ، وهـو يغمغم لنفسه :

ـ أعتقد أنك ستنتظر طويلاً يا صديقى (مايرز) .. طويلاً جدًا ..!!

وسار (مايرز) إلى نـهاية الشـارع الخلفـى الضيق ، مستغرقًا فى تفكير عميق مضطرب ، فلم ينتبـه إلـى أضـواء السيارة التـى تقترب مـن نهايـة الشـارع نحـوه إلا متـأخرًا ، عندمـا أصبـح مصباحاها المنيران فى مواجهته تمامًا ..

توقفت السيارة بجواره ، فشهق (مايرز) فـى هلـع ، وبمجرد انفتاح بابيها الأماميين ، سارع فى الركض على الرصيف مبتعدًا ، وقدمـاه تنـثران ميـاه الأمطـار المتجمعـة فـى بـرك صغـيرة مـن حوله ..

لقد كشفوه ..

كشفوه بالتأكيد ، وهربه الآن ليس إلا عبث لا معنى له ..

سيجدونه ولو هرب إلى آخر الدنيا ..

تعالت أصوات الأقدام الراكضة من خلفه ، وزاد هو من سرعة هرولته ، دون أن يعرف إلى أين يمضى ..

وبمجرد أن انعطف فى الشارع الجانبى الأكثر ضيقًا ، تعثر فى قدم ممدودة نحوه ، وسقط فى مياه الشارع الضيق على وجهه ، ناثرًا الماء على الجانبين ..

امتدت يد قوية تحمله من سقطته ، ودفعته نحو جدار قريب ، وحاول هو أن يتبين وجه الرجل الذى يقف فى مواجهته ، بلا جدوى ..

ـ من أنت ؟!

هتف بها لاهثًا ..

ـ لا يهم ..

قالها الرجل المواجه له ، وقد بدأ (مايرز) يميز قبعة (كاوبوى) فوق رأسه ..

ـ .. أتعرف ما هو المهم حقًا يا صاح ؟! أن سقطتك فى الماء لم تبلل ثيابى .. عندما تبتل ثيابى أغضب بحق يا عزيزى ، وأنت لا تريد أن تجرب غضبى .. صدقنى لا تتمنَّ هذا مطلقًا ..

صرخ (مايرز) فى هلع :

ـ ماذا تريد ؟!

صمت ، ويبدو أن وشيش الأمطار بدوره قد توقف مع توقف الأمطار نفسها ..

ـ إننا نعلم كل شىء .. وأنت تعلم ما جزاء الخيانة يا عزيزى .. إنك معنا منذ سنوات طويلة ، وكم من أناس فعلوها ونالوا جزاءهم !!

ـ صدقنى أنا لم ...

حاول (مايرز) أن يدافع عن نفسه ، لكن الصوت قاطعه قائلاً :

ـ لن يفيدك هذا ، أنت فى حالة تلبس مع الأسف ..

ومال الشبح نحوه ، لتظهر ملامحه أكثر ..

حاجبان أشهبان كثان .. عينان ضيقتان ماكرتان .. شفتان غليظتان ..

ـ .. أكثر ما أرثى له هو الغباء يا (مايرز) .. غباؤك .. كيف تصورت أن هذا اللعين سوف يعاود الاتصال بك ؟! كيف ؟!

اتسعت عينا (مايرز) وقد ميز وجه محدثه ، بعد أن خانه تمييز الصوت فى الظلام تحت تأثير الهلع الرهيب ..

ـ لقد خدعنى يا سيد (زامير) .. خدعنى و ...

هزَّ الرجل رأسه فى أسف :

ـ فى مثل هذه الحالات لا يفيد الاعتذار يا عزيزى .. إلى اللقاء ..

وشعر (مايرز) بفوهة تلتصق بالجانب الأيسر من صدره ..

ـ .. أعنى ، الوداع ..

وانطلقت رصاصة مكتومة فى جوف الليل ، جحظت على إثرها عينا (مايرز) ، واندفع الدم من فمه ليغرق ذقنه ، قبل أن يسقط على الأرض جثة هامدة ..

أعاد الرجل مسدسه إلى جيب معطفه ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها رجلا السيارة عند بداية الشارع ، وأشار لهما بحركة سريعة إلى الجثة ليسرعا بجرّها بعيدًا ، فى حين أشعل هو سيجاره الضخم ، ومضى مبتعدًا ..

وحمل المشهد كله توقيعًا مميزًا للغاية ..

توقيع (الداهية) ..

* * *

المنظر العام يبعث على قشعريرة الصقيع .. مدى أبيض من الجليد يكلل القمم العالية والسفوح المستوية ..

ندف الثلج تتساقط فى بطء ، على إحدى الهضاب النائية من جبال (الألب) الأوروبية الشاسعة ..

اقترب قليلا ، وسترى عند إحدى المناطق المستوية طائرة مروحية كبيرة ، تبدو كتنين صغير ، مستكينة قرب مدخل لكهف مظلم ، وبجوارها يقوم بناء معدنى صغير للغاية ، أشبه بكوخ حراسة ..

اقترب أكثر ، وسترى داخل الكوخ ثلاثة رجال يرتدون ملابس ثقيلة ، يفركون أكفهم استجلابًا للدفء ، وينظر أحدهم نحو السماء مغمغمًا :

ـ الرياح الباردة تشتد .. يبدو أننا على مشارف عاصفة جليدية أخرى ..

قائل العبارة أبيض البشرة ، ذهبىُّ الشعر واللحية الدائرية حول فمه .. زرقة عينيه متناغمة مع طبيعة البرودة المحيطة ، والثلوج التى تكسو كل ما حولهم .. لَكْنَته فى نطق الإنجليزية تشوبها الروسية فى وضوح .. راجع لهجة الأبطال الروس فى أفلام (جيمس بوند) القديمة وستعرف ما أعنى ..

جاءه الرد من زميله الذى يبدو على طرف النقيض تمامًا ..

ـ يصعب على أمثالى اعتياد هذه الأجواء ، عزيزى (بوريس) ..!

البشرة السوداء الداكنة .. الشعر الأكرت القصير .. العينان الضيقتان السوداوان والشفتان الغلظيتان .. ملامح إفريقيَّة حارة لا تخطئها العينان ، تتناقض مع المناخ من حولهم .. واللكنة الإنجليزية تشوبها الفرنسية فى وضوح .. راجع لكنة (بيتر سيلرز) فى سلسلة أفلام (الفهد الوردى) وستعرف ما أعنى ..

كان صاحب البشرة السوداء يناول زميله كوبًا من سائل ساخن ، صَبَّه لتوّه من براد كهربى ، بينما زميله ـ المدعو (بوريس) ـ يقول ، مشيرًا إلى مدخل الكهف المظلم :

ـ لن يمضى وقت طويل حتى نحتاج إلى الدخول هناك احتماء من العاصفة ، عزيزى (دى كمبا) ..

ناول الزنجى ـ المدعو (دى كمبا) ـ ثالثهم ـ الصامت تمامًا ـ كوبًا ، إلا أن الثالث لم يمد يده ، ولم ينظر حتى نحوه ، مكتفيًا بالصمت ، بينما قبعته المصنوعة من الفرو منسدلة فوق عينيه نصف المغمضتين فقال له :

ـ تفضل يا عزيزى ، أعشاب إفريقية تعينك على الوقاية من البرد ..

كان (بوريس) قد فرغ من رشفته ، وبصقها جانبًا مستبشعًا مذاقها ، وسرعان ما قال :

ـ دعك من (فاديم) ، إنه غائب عما حوله هكذا دائمًا ..

هزَّ (دى كمبا) كتفيه ، وقال مقربًا حافة الكوب من شفتيه الغليظتين :

ـ لهذا يستخدمه (رجل الليل) كآلة قتل ليس إلا ..

هز (بوريس) كتفيه بدوره ، وقال :

ـ إنه لا يستخدمنا فى مهام أقل خطورة ..!

رشف (دى كمبا) من الأعشاب فى تلذذ ، قبل أن يقول :

ـ صحيح .. القتل سهل .. أما أن تجلب ضحية حية إلى هنا ، فى مركز اللامكان ، ظلال وادى الموت ، فهذا هو العمل الصعب بحق .. خاصة حين تكون الضحية فتاة ..

قال (بوريس) :

ـ جلب الرجل أصعب ، إن الفتاة سوف تكون مقاومتها أقل ..

قال (دى كمبا) :

ـ لكن الفتاة يمكن أن تصرخ وتفضحك ..

ـ هذا لا يجعل الأمر أسهل ، الرجل أيضًا يمكنه أن يفعل هذا ..!!

كان يمكن أن يستمر جدالهما هذا إلى ما لا نهاية ، ويبدو أن هذا ما أدركه (دى كمبا) ، وجعله يغير من مسار الحديث ، قليلاً فحسب فسأله :

ـ ترى ما الذى يفعله (رجل الليل) بالضحيتين فى داخل هذا المخبأ ؟!

ـ هذا شأنه ..

ـ وما الذى يجعلنا نطيعه كالعميان ، أو كالخراف التى ضلت عن راعيها ، دون حتى أن نقوى على الاعتراض ؟!

تنهد (بوريس) ، وقال :

ـ لا أعلم ، يبدو أنها القطعة المعدنية اللعينة المزروعة فى أدمغتنا .. إنها تجعلنا غير قادرين إلا على طاعته ..

غمغم (دى كمبا) :

ـ وهل تظنه يغضب من أسئلتنا هذه ؟!

ـ لا أظن .. إنه يعرف كل شىء عنا ، ويعرف أننا نطرحها بالتأكيد ، كما يعرف أننا لن نقوى على تغيير شىء .. ما نحن إلا تابعون له لن نقوى أبدًا على التمرد ..

ثم تنهد (بوريس) وتابع :

ـ .. إننا لسنا بشرًا يا عزيزى .. البشر يتمتعون بإرادات حرة .. يختارون .. يتحملون مسئولية اختياراتهم .. يشعرون .. يحبون يكرهون ويتألمون .. أما نحن فلا نقوى حتى على ذلك .. بالأمس أطلق (فاديم) النار على المرأة الوحيدة التى أحبها قلبى ، وأكثر ما يعذبنى هو أننى لم أتألم .. لم أبكِ .. حتى الانتحار وإنهاء حياتى بيدى ، قرار مستحيل بالنسبة لى ، لا أقوى على اتخاذه ..

قال (دى كمبا) فى لهجة محايدة خالية من أى شعور :

ـ نحن مأساة كاملة إذن ..

أومأ (بوريس) برأسه موافقًا :

ـ هذا حقيقى .. مأساة دَفَعَنا إليها دفعًا ، قَدَرٌ اختارنا دون أن نختاره ..

غمغم (دى كمبا) :

ـ لننتظر النهاية إذن ..

ـ الخبر الحسن هو أنكم لن تنتظروا طويلاً ..!!

التفتا على الفور ـ وثالثهم (فاديم) الذى أثار الصوت النسائى انتباهه ـ نحو باب الكوخ المعدنى ، وفوجئوا بالمرأة المتدثرة فى ملابس ثقيلة ، تحمل مدفعًا رشاشًا توجهه نحوهم وعيناها تنضحان بالكراهية ..

هتف (بوريس) مبهوتًا :

ـ غير معقول .. (نينا) ؟!

خصلات شعرها الذهبية تتدلى من أسفل القبعة ، عيناها الخضراوان مشتعلتان بالغضب ، إضافة إلى شفتيها الرفيعتين وأنفها المستدق ، أهم ما يميزان ملامحها ..

التفت (دى كمبا) نحو (بوريس) سائلا فى سرعة :

ـ هل تعرفها ؟!

ـ إنها حبيبتى ..

ـ التى قتلت ؟!

ـ أجل ..!!

هتفت (نينا) ، بينما يد (فاديم) تتسلل فى بطء إلى جيبه؛ نحو مسدسه :

ـ أمثالى لا يموتون بسهولة ، عزيزى (بوريس) .. امرأة مثلى تحتاج لما هو أكثر من الرصاصات حتى تموت .. لقد أخرجت اثنتين منها من جسدى بنفسى ، والثالثة لا زالت بمكمنها ، فالثالثة بالذات تحتاج إلى جراح متخصص ..!!

قال (بوريس) وهو ينهض فى مواجهتها ببطء :

ـ وأمثالك أيضًا لا يجدون مشكلة فى التوصل إلى مكان أى شخص يريدونه ..

قالت هازَّة كتفيها :

ـ ظننت هذا واضحًا ..

ـ لكنك تنتحرين ، حبيبتى (نينا) .. قدومك على قدميك إلى هنا انتحار لا مراء فيه ..

قالت (نينا) فى لهجة عميقة :

ـ ليس لدى خيار آخر .. بكل أسف ..

سألها (دى كمبا) مشيرًا إلى صدره :

ـ هل ترومين قتلنا أيتها السيدة ؟!

أعادت نفس عبارتها ، بنفس اللهجة العميقة :

ـ ليس لدى خيار آخر .. بكل أسف ..!

ونظرت إلى (بوريس) بعين دامعة :

ـ سامحنى يا عزيزى .. كما سامحتك من قبل ..

وجهت (نينا) فوهة مدفعها نحو صدر (بوريس) ، فى نفس اللحظة التى استل فيها (فاديم) مسدسه ، وأطلق النار نحوها بدوره ..

واندلعت المعركة ..

أطلقت (نينا) وابلاً من رصاص مدفعها نحو (دى كمبا) ، فاخترقت الرصاصات صدره لينفجر بالدم ، قبل أن يهوى فوق الأرض صارخًا يتألم ..

لوثت دماؤه بشرته السوداء والأرضية الخشبية ، وتحطم كوب السائل الساخن إذ سقط من يده ، بينما استدارت (نينا) مواصلة إطلاق النار فى جنون نحو (بوريس)؛ الذى حاول أن يهرول مبتعدًا نحو النافذة ، متجاوزًا (دى كمبا) ، إلا أن الرصاص اخترق ذراعه ، فأطلق بدوره صرخة ألم عاتية ..

وقبل أن يخترق جسد (بوريس) مزيد من الرصاصات ، كان (فاديم) قد تحرك ، وأطلق رصاصه نحو (نينا) بدوره ، من مسدس صغير 9 مم ..

رصاصة واحدة انطلقت ، أصابت كتف (نينا) الأيمن ..

رصاصة واحدة ، تلتها تكة معدنية ..

كانت الرصاصات قد نفدت من خزان المسدس ..

هكذا تركت (نينا) (بوريس) يقفز من النافذة نحو الخارج ، حيث العاصفة الجليدية قد بدأت بشائرها فى الهلول عبر المدى الرمادى ، واستدارت على الفور نحو (فاديم) ، لتمطره بوابل من رصاصات مدفعها ، قبل أن ينجح فى تغيير خزان رصاصاته ..

وانفجر الدم من جسد (فاديم) ، وهو يندفع إلى الوراء مع اختراق الرصاصات لجسده ..

اندفع ثم سقط أرضًا ، دون أن يصدر أدنى صوت .. لاصيحة ألم ، لا همهمة ، لا شىء ..

سقط (فاديم) فى جانب الكوخ ، واستدارت (نينا) نحو (بوريس) الذى اندفع راكضًا نحو مدخل الكهف ..

استدارت ممسكة بكتفها الجريح ، تغمغم وهى تعض شفتيها من الألم :

ـ لن تفسد خطتى يا (بوريس) .. ليس وفى صدرى نفس يتردد ..

و(بوريس) يعدو ، قدماه تغوصان فى الثلوج ، وبكف يده اليسرى يمسك ذراعه اليمنى المصابة ، والدم ينزُّ من الجروح ليلوث الجليد الأبيض أسفل قدميه ..

و(نينا) خلفه ، وقد أصبح فى مرمى بصرها ، تستعد لتصويب المدفع نحوه من جديد ، وتطلق بضع رصاصات بالفعل ، فتصيب إحداها كتفه ، ليعلو صراخه المتألم مرة أخرى ، ويجاهد حتى لا يسقط ، بينما (نينا) تستعد لإطلاق المزيد من الرصاصات ..

عندما ..

انكفأت (نينا) بوجهها على الأرض ، إثر وثبة (فاديم) نحوها ، من النقطة العمياء التى لا يغطيها مجالها البصرى ..

سقطت (نينا) ، وسقط مدفعها الرشاش ، وجاهدت (نينا) لكى تتملص من جثوم (فاديم) فوقها ، لكنها شعرت بأصابعه تطبق فى قوة فولاذية حول رقبتها ، وتضغطان شرايينها حتى كاد رأسها أن ينفجر ، بينما الدم النازف من جروح (فاديم) الغائرة يَنِزُّ فوق ملابسها وفوق الجليد ، أما (بوريس) فكان ينهض مواصلاً طريقه نحو مدخل الكهف ..

جاهدت (نينا) لتصرخ ، استماتت لتتحرك ، لكنها لم تنجح فى التملص ..

شحب وجهها المدفون فى الجليد ، وازْرَقَّ لعجزها عن التنفس من جهة وللضغط المتواصل الذى يمنع الدم من بلوغ مخها من جهة أخرى ..

باتت النهاية أقرب إليها من حبل الوريد ، وأصابع العملاق البشرى تواصلان الضغط ، وتواصلان الضغط ، وتواصلان الضغط عليها حتى نقطة الانفجار ..

لكن ..

انتهى كل شىء فجأة ..

سقط (فاديم) من فوقها ، طريح الثلوج بجوارها ، وقد تخشب جسده وتحجرت عيناه تمامًا ..

استغرقت ثانية أو أكثر ريثما تستعيد توازنها ، رفعت رأسها من الجليد شاهقة فى قوة كمن عادت إليه الروح ، عبَّت من الهواء ، قبل أن تستعيد إدراك الموجودات من حولها ..

نظرت إلى (فاديم) وأيقنت من النظرة الأولى أنه فارق الروح ، وإلا فمن أين أتت وسادة الدم الأحمر القانى التى تفترش الجليد تحت رأسه الساكن ؟!

من ثقب فى مؤخرة رأسه لا ريب ..

ثقب صنعته رصاصة ..

رصاصة أتت من مسدس ..

مسدس يحمله ذلك الرجل الذى اقترب من (نينا) وربت على كتفها فى تساؤل ، دون أن ينبس بحرف ..

نظرت نحوه (نينا) مفزوعة للوهلة الأولى ، ثم تسرب إليها الاطمئنان وقد لمحت المسدس الذى انطلقت منه الرصاصة فى يده ، ثم ترسانة الأسلحة التى تحيط بجسده ، من مدفع رشاش ومسدسات ورصاصات وقنابل يدوية ، وحتى خناجر ..!

ـ أنت من قتلته ، أليس كذلك ؟!

لم يأتها جواب شاف ، فأيقنت (نينا) أن الرجل الذى تتحدث إليه لا يختلف عن (فاديم) كثيرًا ..

إنه آلة قتل بكماء ، من الجيل الأول الذى تخرج على أيدى زبانية المشروع السرى ..

الوجه المثلث ، نظارة الشمس ، بلا قبعة فرنسية هذه المرة وإنما شعر حليق كأنه غابة من الدبابيس السوداء ، وسمت صامت أبدًا ..

أليس هو من نعرفه باسم (روب) ؟!

نظر (روب) نحو مدخل الكهف ، وكان (بوريس) قد بلغه بشق الأنفس ، فأسرعت (نينا) تنهض ، وتستند على ذراع (روب) هافتة ، وهى تتحامل على آلام كتفها النازف :

ـ يجب أن نمنعه من تحذيرهم ، إن (رجل الليل) فى الداخل لا ريب ..

وكأن (روب) كان ينتظر تعليقها ، فسرعان ما حمل مسدسه ، وأطلق رصاصتين باتجاه (بوريس) ليرديه قتيلاً من مكمنه حيث كان يقف ..

نظرت إليها (نينا) فى دهشة ، ثم قالت وهى تغتصب بسمة شاحبة فوق شفتيها :

ـ رائع ، أيًا من كنت وأيًا كان اسمك ، فيبدو أننى سوف أستفيد منك بأكثر مما كنت أتوقع ..

ودون مزيد من الكلمات ، أسرعا بالدخول نحو المخبأ فى باطن الكهف ، بينما نذير العاصفة الجليدية يقترب ، ويلوح عاتيًا فى الأفق القريب ..

* * *

2ـ نقطة الانهيار..

كادت الزنزانة الضيقة أن تطبق على صدر (منصور حرب) ، وأن تضيق أكثر وأكثر حتى تعتصر جسده اعتصارًا ..

كان هذا شعوره ، وهو يتابع ما يجرى على الشاشة المقسومة نصفين طوليين أمام عينيه العاجزتين ، نصف يضحك فيه الرجل المختبئ خلف قناع (رجل الليل) الطفولي؛ يضحك ملء شدقيه فى استمتاع لا أول له ولا آخر ، والنصف الثانى يصور (عمر)؛ تلميذه وربيبه ، وبعض الرجال المكممين بمعاطف طبية من حوله ، يستعدون لإجراء عملية سوف تفقده حياته ..

عملية قطع رأسه بوحشية ، باستخدام منشار كهربى ..!

ذلك من أجل الحصول على الشريحة الإلكترونية المزروعة فيه ، أما الشريحة الثانية المزروعة فى رأس (دينا واصف) ، الممددة على سرير بجوار (عمر) ، فهم يستعدون لحقنها بمصل يحض على الاعتراف بالحقيقة ، من أجل أن يعرفوا منها أين خبأتها ..

وكل هذا فى سبيل الحصول على نصفى شفرة مكونة من 12 رقم ، كل نصف منهم مسجل على شريحة ، وباجتماعهما يمكن الولوج

إلى وثائق المشروع السرى القديم ، المسجلة على قرص صلب يملكه هذا المخبول ، المختفى خلف قناع (رجل الليل)(*) ..!!

العجز ..

العجز المهين ..

ضم (منصور حرب) أصابعه فى غضب ، وهو يراقب حياة أقرب الناس إليه فى هذا العالم وهى توشك على الانتهاء ، وهو عاجز عن أى يحرك ساكنًا ، أو يمنع أى شىء ..

صرخ فى يأس :

ـ لِمَ كل هذا ؟! ماذا فعلا لك ؟! فيم أخطأا بحقك ؟!

فوجئ بـ (رجل الليل) يقطع ضحكته ، وأتاه صوته محملاً بانفعال غريب :

ـ فعلتم الكثير .. لو بدأت أحصى فلن أنتهى قبل الغد ..!

صاح فيه (منصور) :

ـ هذا الفتى بالذات لم يؤذك بمقدار شعرة .. انتقم ممن آذاك ، اقطع رأسى لو كان هذا سيشعرك بأنك قد ثأرت منى ، لذنب لم أقترفه فى حقك ..

(*) من أجل مزيد من التفاصيل الهامة يفضل مراجعة العدد السابق (تأثير الدومينو) ، ومن أجل صورة أعم وتفاصيل أكثر نوصى بمراجعة المغامرات من العدد 17 إلى العدد 21 ..

أتاه صوت (رجل الليل) محملاً بانفعال أكثر غرابة :

ـ يا لك من وغد تجيد التلاعب بالألفاظ ..!

ثم إنه أردف :

ـ .. لكن هذا الأداء المسرحى المؤثر لن يوقف شيئًا ، سوف يستمر العرض حتى نهايته ، ولن ينتهى إلا مع إسدال ستار النهاية ..

المنشار الكهربى فى أيديهم وقد تم توصيله بالكهرباء ..

يجربونه فيطلق أزيزًا مزعجًا ، مع دوران طرفه الدائرى المسنون ..

يدنونه من رأس (عمر) الغارق فى متاهات الغيبوبة ..

المنشار يدنو ، وقلب (منصور) ينخلع ، والعرض يسير حتى نهايته المحتومة ..

ستار النهاية ..

و (رجل الليل) يختم فى لهجة تليق بمجنون :

ـ .. أو الإظلام ..

منشار الكهرباء يدنو أكثر من عنق (عمر) ، حتى إن (منصور) قد أغلق عينيه فى استياء ، متوقعًا بشاعة المنظر ، وقلبه ينفطر نصفين ..

لكن ، وكأن الكهرباء كانت تنتظر إشارة لفظية من (رجل الليل) ، ساد الظلام فجأة ..!!

الظلام الدامس ..

الظلام الذى داهم عينا (منصور) عندما فتح عينيه ، فظن أنهما ما زالتا مغلقتين ..!!

علا صوت فى الغرفة الصغيرة المجاورة للزانزانة ، حيث كانت الكاميرا المواجهة للمكتب تنقل صورة الرجل المختفى خلف القناع :

ـ انقطع التيار الكهربى على ما يبدو ..

انتفض (رجل الليل) ناهضًا من مقعده فى قلب الظلام ، وهتف فى غضب :

ـ يا لكم من حفنة أوغاد ، لا تساوون عشر ما دفعته فيكم ولكم .. كيف يمكن أن يحدث خطأ كهذا ؟!

علا صوت مضطرب أجابه فى الظلام :

ـ للتكنولوجيا عيوبها يا سيدى .. سنرى أين العطل فى الحال ، ربما كان سوء الأحوال الجوية هو الذى ...!

قاطعه غضب (رجل الليل) المهتاج :

ـ أوغاد .. عذر أقبح من ذنب .. كيف لم تحتاطوا لأمر كهذا ؟! كيف ؟!

ازداد صوت رجله اضطرابًا وهو يحدثه قائلاً :

ـ احتطنا لكل شيء ياسيدى .. لا تقلق .. مولد الكهرباء الاحتياطى سوف يعمل فى غضون عشر دقائق فقط ..!

فازداد هياج (رجل الليل) :

ـ فقط ؟! وتقول فقط ؟! وهل عشر الدقائق بالنسبة لك أمر هين ؟! أتعلم كم من حدث جلل يمكنه أن يحدث خلال دقيقتين ، دقيقة ، أو ثانية واحدة من الزمن فحسب أيها اللعين ؟!

رشح العرق على جبين الرجل ، وهو يحاول تهدئة محدثه بقوله :

ـ لقد أرسلنا بعض الرجال لكى يتأكدوا من أن كل شيء على ما يرام عند المولد الرئيس ، ولو كان الأمر هينًا فسوف يعود التيار الكهربى قبل هذا ، اعتمادًا على المولد الرئيـ...

فوجئ الرجل قبل أن يختم عبراته ، بقبضة حديدية تمسك تلابيبه فى قوة خارقة ، قبضة تكاد من قوتها أن ترفع قدميه من فوق الأرض ، وبصوت (رجل الليل) المتوعد يتسرب مسممًا أعصابه رويدًا رويدًا ، فى مواجهته مباشرة ، حتى إن أنفاسه لفحت وجهه :

ـ سيكون من الأفضل لك حتمًا أن يكون الأمر هينًا ، وإلا ...

تركه (رجل الليل) يتخيل بقية الجملة المتوعدة ، فحاول الرجل أن يبدو متماسكًا رابط الجأش إذ قال :

ـ سأذهب للتحقق من كل شئ بنفسى يا سيدى ..

شعر بالقبضة الممسكة به ترتخى قليلاً ، بينما صوت (رجل الليل) يقول :

ـ أفضل لك هذا أيضًا ..

وانطلق الرجل على الفور ، ممسكًا ببطارية صغيرة نحو مدخل الكهف ، بينما ارتمى (رجل الليل) على مقعده يضرب أخماسًا فى أسداس ، ويحاول أن يفكر فى هدوء ..

إنه يشم فى الأجواء رائحة لا يحبها ..

رائحة تشى بأن الأمور لا تسير على ما يرام كما هو مخطط لها ، وأن هناك انقلابًا سيغير كل شىء ، ربما لا يتجاوز حدوثه الدقائق القليلة القادمة ..

عليه أن يكون حذرًا ، ليس معنى أنه خلع قناعه لوهلة ـ معرضا هويته للانكشاف لو عاد الضوء فجأة أمام عينى رجاله ، وأمام عدسة الكاميرا التى تنقل صورته إلى الشاشة أمام عينى (الصقر العجوز) ـ ليس معنى هذا أنه تخلى عن حذره ..

معناه أن إحساسه صادق ، وأن الخطر يقترب ، وأن عليه أن يبدأ فى التحرك على الفور ..

شعور مشابه اعترى (منصور حرب) فى زنزانته وقد أظلمت الدنيا من حوله ، وسكن كل شىء ، الأمر الذى يدفعه نحو حافة الجنون مع كل ما مر فى الساعات الماضية ..

كثير كل هذا على أعصاب شيخوخته ، فحتى متى يستطيع الاحتمال ؟!

* * *

ـ يا للسماء ..!!

نطق بها الرجل فى ارتياع ، وهو يسلط ضوء بطاريته على جثث الرجال المرتمية أمام مولد الكهرباء الرئيس فوق الأرض ، غارقة فى دمائها ..

نفس الرجل الذى كان يقف منذ قليل فى مواجهة سخط (رجل الليل) ..

كيف سيعود ويخبره بما حدث ؟! هذا أول ما فكر فيه ..

فى الثانية التالية قام برفع الضوء نحو المولد ، ليراه وقد تلف تمامًا بفعل قنبلة يدوية ، لم تنقل الجدران العازلة للصوت دوى انفجارها إليهم فى الداخل ..

هكذا أرادها (رجل الليل) عندما قاموا ببناء المخبأ ، جدران عازلة للصوت ، فمن ذا الذى يستطيع مناقشته فى أمر أصدره ، بشأن بناء أنفق عليه من ماله الخاص ، فى جوف منطقة نائية وبعيدة من جبال (الألب) ؟!

يبدو أن هناك متسلل عرف الطريق إلى هنا ، يروم الدخول وإفساد ما يصنعه (رجل الليل) فى الداخل .. لم يكن بحاجة لأن يكون عبقريًا حتى يستنتج هذه البديهيات ..

وفى الثانية التالية ، قبل أن ينجح الرجل فى اتخاذ قرار ما بشأن حصافة الخطوة المقبلة ، سقط مضرجًا بدمائه بين جثث رجاله ، إثر رصاصة عرفت طريقها جيدًا إلى مؤخرة رأسه فى قلب الظلام ..

ـ ضحية أخرى ، يبدو أنك بارع فى التصويب حتى فى الظلام ..

قالتها (نينا) دون أن تخفى إعجابها بـ (روب) الذى لم تعرف اسمه بعد ، والذى يقف إلى جوارها فى الظلام ، مصوبًا مسدسه لا يزال نحو النقطة التى كان رأس الرجل ينتصب فيها قبل لحيظات ، والبارود يضوع من فوهته كعطر قاس ..

تجهل (نينا) أن (روب) كائن خاص ، بشرى بإمكانيات تكنولوجية متطورة ، وأن النظارة السوداء التى لا تفارق عينيه تملك خاصية الرؤية الليلية بالأشعة تحت الحمراء ، وتنقل إلى مخه صورة لا بأس لها لكل ما يجرى من حوله فى الظلام ..

تجهل (نينا) أيضًا أن (روب) مزود بجهاز تحديد الأماكن باستخدام القمر الصناعى ، وأنه يمكن أن يحدد مكان وجود (عمر زهران) فى أى منطقة من الكرة الأرضية ، اعتمادًا على موجات معينة تطلقها الشريحة الإلكترونية المزروعة فى رأسه ..

هكذا وصل (روب) إلى هنا ، وهكذا نجح فى الوصول إلى (عمر) ، وتحديد موقعه رغم عدم توافر معلومات كافية ، فى أكثر من مهمة سابقة ..

تجهل (نينا) كل هذا ، لكنها تحركت خلف (روب) وقد استشعرت حركته فى الظلام ، تحركت خلفه نحو الداخل ، إلى حيث المرح الحقيقى ، أوشك أن يبدأ ..

* * *

من خلال منظار الرؤية فى الظلام ، شق (روب) طريقه ، وخلفه (نينا) تعتمد براحتها على كتفه ، وتسير خلفه مدركة كم تستطيع الاعتماد عليه ! وكانت قد أمسكت بيدها بطارية الضوء التى سقطت من الضحية الأخيرة أمام المولد الكهربى ، يكشف ضوءها مسافة متر أمامها ، حتى لا تتعثر على الأقل ..

كان الطريق خاليًا ..

وفى نهايته قضبان يجلس خلفها رجل ما ، تنبع منه مؤشرات حيوية ، يدركها عقل (روب) الهجين ما بين البشرى والآلى ..

إنه (منصور حرب) ، (الصقر العجوز) ولا أحد سواه ..

وكان (منصور) يجلس فى زنزانته يحاول أن يفهم ما يجرى ، وأن يستشرف ما سوف يجرى ، عندما لمح خيط الضوء المقترب فى يد (نينا) ، واستطاع أن يميز الجسم المقترب منه فى الظلام دون أن يميز ملامحه ..

لم يكن يشعر أنه قد أتى لخير ..

لم يكن فى وضع يسمح له بالتفاؤل أبدًا ..

توقف (روب) ، وتوقفت خلفه (نينا) ، واستغرق (روب) لحظة وأخرى حتى مسح المنطقة بعينيه من خلف النظارة الداكنة ، وتوصل إلى القرار المناسب ..

اقترب من القضبان ، وبالتحديد أكثر من القفل الإلكترونى الموصد ، وألصق به جسمًا ما ، و(منصور) يراقب ما يفعل دون أن يستطيع تمييز ملامحه بعد فى قلب الظلام ..

ـ من أنت ؟! وماذا تفعل ؟!

قالها مرتين بلغتين مختلفتين ، ولم يجبه (روب) بالطبع ، إلا أن صوت (نينا) أتاه من الخلف حيث تقف ، وقد فهمت ما قاله بالإنجليزية :

- أعتقد أنه يحاول مساعدتك كما ساعدنى من قبلك ..!

قطَّب (منصور) متسائلاً :

- ومن تكونان ؟!

قالت (نينا) :

- لا أعرفه ، ولن أستطيع إخبارك بمن أكون قبل أن أطمئن إليك ..

قال (منصور) فى سخرية مريرة :

- هذا سيبقى كلاً منَا فى الظلام لفترة ليست بالهينة ..

هزّت كتفيها وقالت مسلِّطةً الضوء على (روب) محاولة أن تفهم ما يفعله :

- لنتعشم ألا يحدث هذا ..

وانتهى الحوار عندما انتهى (روب) مما يفعله عند القفل ، ثم إنه نهض وتراجع إلى الخلف ليضغط زرًا فى جهاز تحكم عن بعد صغير ، انفتحت معه قضبان الزنزانة الصغيرة الضيقة ، وارتفعت إلى أعلى فى بطء ..

- إنك لا تكف عن إبهارى أيها المجهول الصامت ..!

غمغمت بها (نينا) وهى تقاوم ذهولها ، فى حين انتفض (منصور) من جلسته وانطلق نحو (روب) ، ممسكًا بكتفيه ومحدقًا فى ملامح وجهه ، التى أظهرها الضوء الشاحب فى يد (نينا) قليلاً ، وهتف مذهولاً :

- (روب) ؟! أهذا أنت ؟!

قالت (نينا) وذهولها يتعاظم :

- إنكما تعرفان بعضكما البعض إذن ..

قال (منصور) متابعًا كأنه لم يسمعها :

- لابد أن (عفت) هو الذى أرسلك .. خيرًا فعل فأمامنا الكثير .. لابد أن ننقذ (عمر) و(دينا) فى الحال قبل أن ...

وقبل أن يكمل (منصور) ، كان (روب) قد تركه وانطلق إلى الداخل ، واستغرق (منصور) و(نينا) برهة قبل أن يحسما أمرهما ..

وانطلقا خلفه نحو المصير المجهول ..

* * *

دقت قبضة (رجل الليل) سطح مكتبه فى غضب عارم ، وارتفع صياحه :

- لِمَ لَمْ يَعُدْ حتى الآن هذا اللعين ؟!

ارتفع صوت أحد رجاله :

ـ هل أذهب وأتفقد الحال يا سيدى ؟!

هتف (رجل الليل) آمرًا :

ـ لا يتحرك أحد منكم ..

ونظر فى ساعة معصمه ذات العقارب المضيئة ، متابعًا :

ـ .. إنْ هى إلا خمس دقائق ويعمل المولد الاحتياطى ، لو كان هذا الوغد صادقًا ..

قالها وكل نبرة فى صوته تنطق بعدم الاطمئنان ..

فى الأمر كارثة لا ريب ، كارثة ستقلب كل الأمور رأسًا على عقب ، الكارثة التى بدأ يستبين مداها عندما ارتفع صوت تروس قضبان الزنزانة ، وهى تنفتح لأعلى من الجوار ..

ـ اللعنة ، ما الذى يحدث فى زنزانة الأسير ؟!

هتف بها أحد الرجال ، فزجره (رجل الليل) هاتفًا ، وهو يعيد القناع إلى وجهه فى قلب الظلام :

ـ صه يا أحمق ، ليَثْبُت كلٌ منكم فى مكانه ..

امتثلوا لأمره ، بينما نهض هو محاولاً إرهاف سمعه ..

سمع بعضًا من حوار (منصور) و(نينا) ، ثم صوت أقدام تقترب ، فاضطربت دقات قلبه ، ونظر فى ساعته التى آذنت بأن الباقى من الزمن أقل من ثلاث دقائق ويعود الضوء ، فهتف فى الرجال على الفور :

ـ الخطة البديلة يا رجال .. خطة الطوارئ ..

وبمجرد أن انتهى من هتافه ، بدأت الموقعة فى قلب الظلام ..

من الباب الرئيس للغرفة ، ظهر (روب) دون أن يراه أحد ، لكنه استطاع أن يميز الكتل البشرية اعتمادًا على المنظار على عينيه ، وبدأ فى إطلاق الرصاصات ..

سقطت الأجسام مكومة على الأرض ، مضرجة بدمائها ، بينما أخذ (رجل الليل) يعدو نحو الباب الآخر للغرفة ، المفضى إلى غرفة العمليات التى يقبع فيها (عمر) و(دينا) مع الفريق الطبى المحدود ..

حصدت رصاصات (روب) أرواح الرجال جميعًا ، وعرفت رصاصة أخيرة طريقها إلى كتف (رجل الليل) الذى انفجر صارخًا ، فى نفس اللحظة التى عاد الضوء فيها إلى الغرفة عبر المولد الاحتياطى ، وغمر كل شئ ..

وكان المشهد مرعبًا بحق ..

(روب) يقف فى منتصف الحجرة بين الجثث ، مصوبًا مدفعه الرشاش إلى (رجل الليل) المكوم على الأرض مقرفصًا ، وهو ينظر إليهم فى ألم من خلف قناع الشخصية الضاحكة ، ويده تمسك بجرح كتفه المنفجر بالدم ..

عند الباب الرئيس يقف (الصقر العجوز) و(نينا) ، وقد أعشى الضوء أعينهما لوهلة قبل أن يعتاداه ، وينظران إلى (رجل الليل) وقد انقلبت الآية ، واختل ميزان القوة فى دقائق معدودة ، بينما الرءوس الأربعة الموضوعة فى الصناديق الزجاجية فى جانب المكتب ، تبدو وكأنها تراقب ما يجرى من عالم الموت الآخر ..

الكاميرا تنقل المشهد إلى الشاشة بالخارج ، حيث الزنزانة الآن مفتوحة ولا أحد فيها ، وفى غرفة العمليات يقف الفريق الطبى بانتظار أوامر جديدة ..

كان (روب) مستعدًّا للقتل ، لولا أن صدر أمر (منصور) فى الحال :

ـ توقف يا (روب) ..

توقف (روب) فى امتثال ، وتقدم (منصور) إلى جواره عابرًا فوق الجثث ، دون أن يرفع عينيه عن (رجل الليل) المقرفص على الأرض ، حتى توقف مخاطبًا إياه فى حزم :

ـ أعتقد أن الأوان قد آن لكى ترفع هذا القناع ، وترينا من تكون ..

خيل إليه أن (رجل الليل) قد ضحك فى سخرية من خلف القناع (أو لعل هذا قد حدث بالفعل) ، ثم قال :

ـ ليس بهذه السهولة يا عزيزى ..

قال (منصور) دون أن يتناقص حزمه مقدار أنملة :

ـ لست أراك فى موقف يمكن وصفه بالسهولة على الإطلاق ..

ـ هذا لأنك لا ترى أبعد من قدميك ..

قالها (رجل الليل) ، ثم استل من جيب سترته مسدسًا ، وتوقف ليطلقه نحو (منصور) على الفور ..

لكن (روب) كان أسرع منه ..

طلقة واحدة فى صدره ، دفعته إلى الحائط من خلفه ، وأردته على الأرض بين كومة الجثث .. طلقة لم ينتظر فيها أمر (منصور) هذه المرة ..

زفر (منصور) وتقدم نحو الجثة ، لينتبه مع اقترابه إلى أن (رجل الليل) لم يلق حتفه بعد ، وأنه يمسك فى يده جسمًا ما ، أسود اللون ، ظهر مع اقترابه أكثر أنه جهاز تحكم عن بعد ..

ـ ماذا تفعل ؟!

قالها (منصور) فى ارتياع ، فأجابه نفس الصوت الساخر ، بينما يضغط زر الجهاز بالفعل :

ـ سأقول لك ما قاله (شمشون) يومًا ، وهو يهدم المعبد .. سأقول : علىّ وعلى أعدائى ..!

جذبه (منصور) من تلابيبه ، وسأله مجددًا فى نبرة منفعلة :

ـ ما الذى تفعله أيها الـ ... ؟!

كان لابد أن يبتر عبارته ، مع دوى الانفجارات العارمة فى الخارج ..

ـ كما ترى وتسمع ، أفجِّر المخبأ بما فيه ومن فيه .. لكى نلقى حتفنا جميعًا هنا ، ونحن معًا ..

توالت الانفجارات ، و(رجل الليل) يتابع فى احتضار :

ـ دقيقة واحدة أو أقل ، وينهار الجليد المكوم فوق قمم (الألب) ، ليسد مدخل الكهف المؤدى إلى هذا المخبأ ، مرة واحدة وإلى الأبد كما يقولون ..

الانفجارات تتوالى ، و(رجل الليل) قد سقط مسلمًا الروح ..

إنها النهاية بالفعل ..

ـ لنتحرك الآن على الفور ..

هتف بها (منصور) ، فقالت (نينا) فى خوف :

ـ سأنتظركما فى الخارج ..!!

وانطلقت تبحث عن سلامتها ، بينما تحرك (روب) سابقًا (منصور) نحو الباب المفضى إلى غرفة العمليات ، حيث كان الفريق الطبى قد بدأ العمل مجددًا ، فى داخل الغرفة المعزولة ، وبدأوا فى تجربة المنشار من جديد ..

ـ توقفوا ..!

هتف بها (منصور) ، فالتفتت عيون العاملين فى الداخل إليهما ، واستغرقوا هنيهة ليعرفوا أن تغييرًا ما قد طرأ على ما هم بصدد عمله ، فتراجعوا مفسحين الطريق لـ (روب) ، الذى تقدم يحمل (عمر) الفاقد وعيه تمامًا على كتفه ، بينما تقدم (منصور) ليحمل (نينا) ،وصوت الانفجار الأخير يدوى فى الخارج ..

لم يعترض طريقهما أحد ، فلم يكن أحد من العاملين فى الفريق الطبى يفهم ما يجرى ، ولم يكن أحد منهم بمؤهل لأى نوع من القتال ..

خرج (روب) و(منصور) بحمليهما ، وهتف أحد العاملين بعد أن رأى الجثث المكومة فى الخارج :

ـ ماذا عنا ؟!

ولم يجبه أحد ..!

ألقى (منصور) بنظرة أخيرة على الرءوس الأربعـة ، معجزة أنه ليس بينهم الآن ، وألقى بنظرة أخرى ـ أخيرة أيضًا ـ على (رجل الليل) الميت خلف القنـاع .. لا يصدق أنـه ليس هنـاك متسع من الوقت لكى يكشف عن هويته ..!!

هرول (منصور) و(روب) إلى الخارج ، وصوت هائل للجليد وقد بدأ ينهار بالفعل قد بدأ يصم الآذان ..

لم تكن المسافة حتى مدخل الكهف بعيدة لحسن الحظ ، وقد وقفـت (نينـا) تنتظرهمـا ، وبمجـرد أن رأتهمـا أشـارت نحـو المروحية الرابضة على مقربة ، وصرخت :

ـ هل يجيد أحدكما قيادتها ؟!

لم يقو (منصور) على الرد لاهثًا ، فلم تكن شيخوخته لتسعفه على حمل فتاة بوزن (دينا) والهرولة بها .. كانت أيام مجد لن تعود عندما كان هذا لعب أطفال ..!!

كـان المنظر فـى الخـارج حيث يقف ثلاثتهم هـائلاً ومرعبًـا بحق ..

بحر من الجليد الأبيض ينهـار أمامهـم مـن فـوق قمـة الجبل البعيد ، طوفان لن يستغرق أكثر من دقيقة أخرى ويكتسح كل مـا فى طريقه اكتساحًا عارمًا ، يمكنك أن تحسبهم ضحايا من الآن ..

ـ لن يسعفنا الوقت ..

هتف بها (منصور) فى خيبة أمـل ، بينمـا (روب) ينظـر فـى ساعة معصمه ، ويحدق فى نقطة ما خلف قمـة قريبـة ، سرعان ما ظهرت من خلفها مروحية تقترب ..

هتفت (نينا) فى سعادة :

ـ يبدو أننا سنهرب من هنا فى النهاية رغم كل شىء ..!

اقتربت المروحية فى سرعة ، والطوفان ما يزال يقترب ، دنـت المروحية منهم وانفتح بابهـا لأعلـى ، صعد (منصـور) ووضـع (دينـا) ممددًا إياهـا علـى الأرض ، وألقـى بنظـرة علـى قائدهـا الأوروبى ، ثم صعدت (نينـا) وقد اطمـأن قلبهـا نوعًـا ، وأخيرًا صعد (روب) ووضع جسد (عمر) على الأرض ..

فى نفس اللحظة التى بدأت المروحية فيها ترتفع ، مع اقـتراب الطوفان الجليدى العارم ..

ـ ليس بهذه السرعة ..!

التفتوا جميعًا إلى مصدر الصوت ..

كان (دى كمبا) قد ظهر عند البوابة ، وأمسك بقدمى (روب) فى قوة مستميتة ، ثم جذبه معه إلى أسفل فى لمح البصر ..

وسقط (روب) مع (دى كمبا) أرضًا ، والمروحية ترتفع ، والطوفان الجليدى يكتسح كل ما فى طريقه اكتساحًا ..

صرخت (نينا) فى (منصور) :

ـ افعل شيئًا ، أنقذه .. لقد أنقذ حياتينا ..!!

نظر (منصور) إلى أسفل عبر باب المروحية المفتوح ، حيث (روب) قد عاجل (دى كمبا) بلكمات أفقدته وعيه .. فى نفس اللحظة التى دنا الطوفان الجليدى منه إلى حد الملامسة ..

كانت لحظة ..

لحظة رفع (روب) فيها عينيه إلى أعلى ، خيل لـ (منصور) فيها أنه ينظر فى عينيه مباشرة ، قبل أن يكتسحه طوفان الانهيار الجليدى ، ويكتسح كل شىء ، (روب) ، الكوخ المعدنى ، الحوامة الرابضة ، مدخل الكهف الذى انمحى تمامًا من الوجود ..

تنهد (منصور) ، وبكت (نينا) ، وارتفعت المروحية أكثر إلى عنان السماء ، مبتعدة عن الخطر ، وقد كتب لكل من فيها عمرًا جديدًا ..

ـ الآن إلى أين يا صاح ؟!

قالها (منصور) وهو يلقى بحمله على أرضية المروحية بجوار (عمرو) و(دينا) ، فأجابه القائد بإنجليزية ركيكة :

ـ الأومر التى لدى تقول أننا ذاهبون إلى (فنلندا) .. (هلسنكى) بالتحديد ..

ـ لا بأس ..

قالها (منصور) فى راحة نسبية لا تخلو من عذاب الضمير ..

وألقى بنظرة أخيرة على الجليد المواصل انهياره بالأسفل ، دون أن يلمح أدنى أثر لشخص كان يدعى (روب) ..!

* * *

3ـ الأستاذ .. والتلميذ ..

24 ساعة مضت ..

(منصور حرب) الآن قد استقر بالفريق فى منزل متواضع من منازل (هلسنكى) الهادئة ، استعدادًا لخطوة قادمة بدأ يعرف كنهها ، و(عزرا أهارون) قد استقر فى فندق رخيص بأحد أحياء (باريس) ، استعدادًا للثروة الهابطة عليه من السماء ..

* * *

جولة أخرى فى شارع (الشانزليزيه) لم يستمتع بها ، يومان فى (باريس) قلب العالم النابض بالحيوية والانطلاق والمرح ، لم يستطع خلالها أن يعثر على أى صدى لحيوية أو انطلاق أو مرح ، فى جنبات نفسه الخربة ..

التوتر والترقب منعاه من الإحساس بلذة أى شىء ..

الليلة ، بعد عدة ساعات فقط ، يحل موعده مع (مادلين) ، يسلمها الملف ويصبح ثريًا ، ثم يبدأ حياة أخرى فى مكان آخر ، باسم آخر ، وليذهب الماضى اللعين على طول امتداده إلى جحيم الذكريات ..

لم يجد فى نفسه القدرة على مواصلة السير بعد ساعتين ، فقرر العودة إلى الفندق الرخيص الذى يقيم فيه ، لكنه قبلها توقف أمامُ كابينة هواتف عامة ، اشترى بطاقة ممغنطة وأجرى اتصالاً أخيرًا بـ (مادلين) ..

ـ موعدنا كما هو ؟!

ـ أمازلت فى حيرتك تهيم على وجهك فى الشوارع منذ الأمس ؟!

صوتها الساخر جعله يتلفت حوله فى ريبة ، باحثًا عمن يصلح ليكون شخصًا مكلفًا بمراقبته واقتفاء أثره ..

ـ هل تراقبوننى أم ماذا ؟!

ـ لا تكن بهذه السذاجة .. إننى أستنتج فحسب ..

لهجتها لم تكن مريحة ، وقد أوغرت صدره بالقلق على صورة الملف التى أخفاها فى الفندق ، لكنه حاول ألا يتسلل هذا القلق إلى نبراته وهو يعاود سؤالها :

ـ لم أتلق جوابًا على السؤال الذى هاتفتك من أجله فى المقام الأول .. هل موعدنا كما هو أم أنك أجّلتِه ، أو لعلك ألغيتِه من الأساس ؟!

فاجأته ضحكة (مادلين) على الطرف الآخر ، ووأججت نيران قلقه وتوتره ، ثم أتاه الصوت فى النهاية مهونًا :

ـ يبدو أن الإنسان أسير عاداته حقًا .. إننى لن أخدعك يا عزيزى (عزرا) ، كن واثقًا من هذا ، واتفاقنا سارٍ كما هو ما لم تخالفه أنت .. سنلتقى فى الثامنة تمامًا فى نفس المطعم الذى أتممنا اتفاقنا فيه ، لا تتأخر أنت ..

اطمأن نسبيًا وإن كان يتمنى لو انتقل فى الثانية التالية إلى الفندق ، فقال فى عجلة :

ـ لا يمكن أن يحدث هذا .. مستحيل .. سألقاكِ فى الموعد إذن ..

وأغلق السماعة دون حتى أن يسمع ردها ، ثم انطلقت قدماه تهرولان نحو (المترو) ..

عشر دقائق تقريبًا ، ولفظته العربة أمام الفندق مباشرة ، فأسرع مواصلاً هرولته إلى مدخل الفندق ، وقفز فوق السلالم عندما وجد أنه سوف ينتظر المصعد طويلاً ، وعندما احتوته الغرفة ، لم ينظر نحو الشرفة المفتوحة التى تلوح عبرها سماء الغروب الملون ، وإنما هرول نحو الدولاب المجاور لباب دورة المياه ، وفتحه لتظهر الخزنة الصغيرة القابعة داخله على رف عال ، ضغط الأرقام السرية ، فطاوعته الخزينة ، وتنفس الصعداء أخيرًا عندما رأى الملف كما هو ، مغلفًا بالنايلون لا يزال كما أتى به من (تل أبيب) ، ساكنًا كجثة ..

التفت مسندًا ظهره إلى الحائط والملف بين يديه ، شعر بالطمأنينة ، لكنه شعور زائف مؤقت ، لم يدم لأكثر من ثلاث ثوان على الأكثر ..

لقد ظهر الشبح لعينيه ـ الآن فقط ـ كسيلويت بارز علىخلفية من أضواء الغروب التى تلوح من الشرفة ، ملامحه لم تكن واضحة ، ومع ذلك فقد تعرف عليه على الفور ، هذا بالذات لا يمكن أن يخطئ سمته من بين ألف رجل فى ليلة حالكة السواد ..

ـ انتظرتك طويلاً ، عزيزى (عزرا) ..!

والصوت أيضًا ، ماكر هادئ لزج كأنه حشرة تزحف تحت الجلد ..

ـ أدون (زامير) ؟!

ضحك الرجل ضحكة (داهية) حقيقى ، ثم مد يده إلى زر الإنارة لتغرق فيها الغرفة الضيقة ، وتبدو ملامحه الساخرة ، الغارقة فى التفاصيل الغليظة والشعر الأشهب ..

قال :

ـ يا لك من وفى .. لم تنس اسمى بعد رغم أننا لم نتقابل منذ عامين ، وربما أكثر ..

حاول (عزرا أهارون) أن يتماسك فى مواجهة أستاذه ، والضابط المكلف بتدريبه منذ زمن بعيد فى بدايته داخل عالم (الوحدة 8200) ، وأطرق برأسه ناظرًا إلى الملف فى يده ، هو يقول :

ـ لا يمكن أن أنساك بهذه السهولة ، ولو مر ألف عام يا أدون (زامير) ..

هزَّ (إيلى زامير) ـ المعروف فى أروقة (الوحدة 8200) بلقب (الداهية) ـ رأسه فى إيجاب ، قائلاً بلهجة يقشعر لها البدن على بساطتها :

ـ ربما كان هذا صحيحًا ، لكن من الواضح أنك نسيت كل ما لقنتك إياه .. يسوءنى أن أقولها لك يا (عزرا) بعد أن مر كل هذا الوقت ، وقد كنت واحدًا من أنجب تلاميذى وأكثرهم مدعاة لفخرى فى وقت من الأوقات : « إنك قد خيبت كل ظنونى فيك » .. إننى أشعر بالخزى لأنهم توقعوا يومًا أن تكون خليفتى ..!!

واصل (عزرا) إطراقه ولم يقو على رفع رأسه ، فى حين أخرج (الداهية) من جيب معطفه الثقيل مسدسًا ، تأكد من احتوائه على الطلقات ، ثم سار الهوينى نحو الثلاجة الصغيرة فى ركن الغرفة .. وضع المسدس على قمتها ، وفتحها ليخرج زجاجة صغيرة من الويسكى ، سارع بصبها فى كوب نظيف وهو يواصل :

ـ .. لقد فاتتك بديهيات ، لا تفوت على هاو لقراءة قصص الجاسوسية والمخابرات الرخيصة .. ألم تسأل نفسك مثلاً لماذا لم يتصلِ بك (مايرز) الخائن طوال اليومين الماضيين ؟! ألم تسأل نفسك كيف خرجت من (إسرائيل) بهذه السهولة رغم أن طلبك للحصول على إجازة قد قوبل بالرفض من قبل الإدارة ؟! ألم تجد مكانًا آخر لإتمام صفقتك المثالية غير (باريس) التى أتيتها منذ أقل من أسبوعين ؟! ألم تجد مكانا تختبئ فيه فى (باريس) غير هذا الفندق الذى نعتمد عليه كثيرًا فى عملياتنا ؟! أولم تجد مكانًا مناسبًا لإخفاء كنزك الصغير سوى خزانة الفندق ، التى يمكن أن يحملها أى لص مبتدئ ويمضى ، ناهيك عن قدرة أى محترف على فتحها بمنتهى السهولة ؟!

ثم إن (زامير) جرع مشروبه على مرة واحدة ، ومسح فمه بكمه مواصلاً :

ـ .. هل تحب أن أسرد لك بقية الأخطاء ؟! ألم أن فى هذا ما يكفى ؟!

لم ينطق (عزرا) ، لكن وقوفه مطرقًا كالتمثال ممسكًا بالملف ، كان يقول الكثير ..

كان صمته يقول أجَلْ ، لديك الحق كله فى أن تقول هذا وما هو أكثر منه بعشرات المرات ، كان يغرق أكثر فى محيط إحباطه

وفشله وهزيمته ، وينتظر من معلمه القديم حكمًا بالإعدام ، ليس أقل من هذا ..

وضع (الداهية) كوبه الخالى فوق الثلاجة ، وأمسك بمسدسه ، واستدار نحو تلميذه لينطق ويقول :

ـ .. أنت تعرف أنه يمكن لأستاذك أن يغفر أى شىء .. أى شىء مهما كان عظيمًا ، لكن يبقى استثناء واحد ، خطأ واحد لا أقبل فيه الغفران ..

غمغم (عزرا) مغلقًا عينيه :

ـ الخيانة ..

نطق بها كأنها سؤال ، فهزّ (زامير) رأسه بالنفى وقال باستخفاف :

ـ إجابة خاطئة .. الخطأ الذى أقصده ، عزيزى (عزرا) ، هو ...

ورفع مسدسه نحو (عزرا) مباشرة ، وهو يردف :

ـ .. الغباء ..

وكانت الشمس فى خارج الفندق قد غابت تمامًا ..

* * *

عندما أفاق (عمر) ، ظلَّ رأسه ثقيلاً ، محشوًا بالدوار وبالأسئلة لدقائق طالت ، قبل أن تسيطر عيناه على رؤية الموجودات من حوله فى وضوح ، وتستعيدان صفاءهما ..

قلب عينيه فى أنحاء الغرفة المظلمة إلا من ضوء شاحب يصدر من مصباح صغير يجاور فراشه .. كانت غرفة نوم صغيرة يغلب عليها اللونين الأبيض والبنىّ ، مجرد سرير وصوان ومقعد .. كل الأثاث خشبى ، صارم ، دون كثير من التفاصيل الحميمية المبعثرة هنا وهناك ، والتى تتميز بها المنازل المأهولة ..

المكان دافئ ، رغم الثلج المتساقط فى الخارج كما يمكن رؤيته من نافذة الغرفة العالية ، على ضوء مصابيح الإنارة فى شارع لابد وأنه قريب ..

اعتدل (عمر) من نومته ، كان يرتدى منامة ثقيلة ناعمة ..

ظلَّ فى جلسته المعتدلة ثابتًا للحظات تنفس فيها ببطء ، محاولاً أن يتذكر ما حدث ..

ما هو آخر ما يذكره ؟!

كان فى منزل (نينا) الروسية ، شاهد رؤيا مفزعة تحت تأثير موهبتها الخارقة ، رؤيا تخص (دينا واصف) ، تهيأ للتحرك عندما اقتحم بعضهم المنزل ، و ...

كلاً ، هذا لن يفيد بشيء ..

السؤال الأكثر أهمية الآن : ما الذى حدث خلال الفترة التى غاب فيها عن الوعى ؟! ما أومن الذى أتى به إلى هنا ؟! و(دينا) .. أيكون ما رآه بصددها واقعًا أم محض هلاوس وألعاب عقلية ؟! هل هو مخطوف الآن من قبل الذين اقتحموا المنزل ؟! وهل سيكون على هذه الحال من الراحة والحرية لو كان مخطوفًا ؟!

كفى أسئلة ، ولينهض فى الحال بحثًا عن إجابات ..

كان ذهنه قد بدأ يجنح إلى الصفاء ، فنهض فى حذر وسار الهوينى نحو باب الغرفة الموارب ، دفعه بيده حيث كان الضوء فى الخارج لا يقل شحوبًا عنه فى الغرفة الضيقة ، ولم يكن (عمر) بأى حال ليتوقع ما رآه ..

كان العميد (منصور حرب) يرتدى ملابس شتوية ثقيلة ، يجلس فوق وسادة وثيرة على الأرض أمام مدفأة خشبية ، تلتهم النيران فيها عيدان الحطب الجافة ..

رآه (عمر) من الخلف ، لكنه عرفه ..

كيف يمكن ألا يعرفه ؟!

كيف ؟!

(منصور) أيضًا شعر به دونما أن يلتفت إليه ..

وكيف لا ؟!

ـ نِمت طويلاً ..

قالها (منصور) دون أن يلتفت إلى (عمر) ، وهو يلقم النار بعض عيدان الخشب ، فحاول هذا الأخير أن يبحث عن كلمة تقال ولا تفسد الموقف ، لكنه لم يجد سوى أن يقول :

ـ كيف جئتُ إلى هنا ؟! ولماذا ؟!

ارتسمت بسمة ساخرة على شفتى (منصور) ، واستدار ينظر إلى (عمر) ويقول :

ـ هذا يتوقف على مدى معرفتك بـ (هنا) هذه ..

ـ إننا لا نزال فى (أوروبا) كما هو واضح ..

قالها (عمر) مقطبًا ، فأيده (منصور) بإيماءة وهو ينهض قائلاً :

ـ صحيح ، فى أقصى الشمال .. (هلسنكى) ..

عقد (عمر) ساعديه ، وأتت لهجته وقحة إذ تساءل :

ـ وما الذى أتى بنا إلى هنا ؟!

ـ قصة طويلة ، لكن لا بأس يمكننى أن أرويها لك ، فالليل لا يزال طفلاً كما يقول الإنجليز ، وهو أمامنا بطوله ..

عندما فرغ (منصور) من عبارته ، كانت يده تمتد مربتة على كتف (عمر) ، الذى أحس بها وكأن سيخًا ملتهبًا يخترق جلده ويشوى لحمه ..

والتقت عيناه الغائمتان بعينى (منصور) اللتين تجلت فيهما آيات الندم ، وتوسلات الاعتذار الصامتة ..

غير أن الجرح لم يكن هينًا ، هو غائر بما يكفى ، غائر لدرجة لا تصلح معها نظرات عتاب أو كلمات مطولة ..

لكن (منصور) لم يكن مستعدًا للتسليم باليأس بهذه السهولة ..

ـ أعلم يا (عمر) أن فى صدرك قنبلة موقوتة لن تلبث أن تنفجر فى وجهى .. وأن كلمات الدنيا كلها لن تكفى لكى أبرر موقفى .. عذرى الوحيد يا بنى ، أننى لم أكن موافقًا على كل ما حدث ..

انفجر (عمر) فيه بالفعل متهكمًا :

ـ حقًا ؟! يا لها من راحة تلك التى تغمرنى الآن !! تصور أننى كنت مستاء قليلاً لأننى تصورت أنك كنت تعلم بأن حياتى ليست هى حياتى .. وبأننى لست أنا ..

حاول (منصور) أن يهوِّن عليه :

ـ لا تكن قاسيًا إلى هذا الحد يا (عمـ ...) ..

لكن القنبلة كانت قد انفجرت بالفعل :

ـ لا تنادنى بهذا الاسم .. لست (عمر زهران) الذى عشت عمرى أظننى هو .. إننى ذلك المخلوق الذى ظننته لوهلة رجلاً آليا أو نصف آلى ، ليتضح فى النهاية أنه ضحية أخرى من ضحايا (المكتب ١٧) المزعوم ، الذى لم يكن له وجود بدوره على الإطلاق .. مأساة أليس كذلك ؟!

صمت (منصور) وهو يتلقى التقريع كطفل مذنب ، وساد الصمت لوهلة إلا من لهاث (عمر) المنفعل ، حتى وجد (منصور) الفرصة السانحة ليقول :

ـ لقد فقدناه مع الأسف ..!

استغرب (عمر) وقع العبارة على أذنيه ، فتساءل من بين لهاثه وانفعاله :

ـ فقدناه ؟! من تعنى ؟!

ـ الذى تتحدث عنه .. (روب) ، أو (عمر زهران) الحقيقى ..!

جذب الأمر اهتمام (عمر) :

ـ كيف ؟!

هنا دعا (منصور) (عمر) للجلوس بحركة واهنـة من يـده ، فجلسا متقابلين ، وأخذ (منصور) يروى ما حدث عبر الأيام الماضية أم بالتفصيل ، من بداية اختطاف (رجل الليل) لـه ، حتى نهايتـه مقتولاً ، ونهاية (روب) ساقطًا من حالق ، عقب انهيار (الألب) الجليدى الذى لم يكن فى الحسبان ..

وبقدر ما شعر (عمر) بالأسى حيال (روب) ، الذى ربما يكون قد دفع حياته مرتين لكى يحيا هو ، بقدر ما اندفع يسأل عنها فى لهفة :

ـ وأين هى (دينا) الآن ؟!

قال (منصور) بلهجة بثت الطمأنينة فى نفسه :

ـ فى مكان آمن للغاية ، لن يتمكن أحد من الوصول إليه بسهولة ..

تحولت لهفة (عمر) إلى شك وهو يسأل :

ـ وأين هو هذا المكان بالتحديد ؟!

زفر (منصور) ، وكان فى قرارة نفسه يتفهم الحالة ، التى خلقها انفجار الوضع على هذه الشاكلة ، ثم قال :

ـ عند أصدقاء لى ، أثق فى بعدهم عن مرمى النيران التى نحن معرضون لها فى المرحلة المقبلة .. لا تَخَفْ ، إنها لا زالت مثل ابنتى التى لم أرزق بها .. مثلك تمامًا ..

ـ أية نيران تقصد ؟! ألم يلقَ (رجل الليل) ـ هذا الذى تسبب فى كل شىء ـ حتفه أمام عينيك حسبما تقول ؟!

لم يجبه (منصور) بلسانه هذه المرة ، وإنما نهض متجهًا إلى المدفأة التى كان يجلس بالقرب منها ، وتناول من فوق قمتها الحجرية المسطحة مظروفًا ، عاد مادًا يده به إلى (عمر) ، الذى تسمر للحظة ، قبل أن يتناوله ويفض محتواه على الفور ..

لم يكن المظروف يحتوى إلا على صورة فوتوغرافيـة ، لرجل مختبئ خلف قناع (رجل الليل) الضاحك فى ظفر ، كأنه نجم سينمائى يأخذ صورة لأفيش فيلم ، وعلى ظهر الصورة كتبت الكلمات التالية :

« *سنلتقى مرة أخرى .. فمثلى لا يموت بسهولة ..* »

ثم التوقيع باسم الشخصية المميز ..

غمغم (عمر) مقطبًا كأنه يفكر بصوت مسموع :

ـ يبدو الأمر وكأنه ...

أكمل عنه (منصور) :

ـ أول ما يتبادر إلى الذهن أمران ، أولهما أن هذه الصورة والكتابة مرسلان قبل أن يقع حادث (الألب) من الشخص الذى قابلته هناك ، وهو تفكير بعيد عن المنطق لأن البطاقة مرسلة إلى هذا العنوان بالتحديد بالبريد السريع ، ونحن لم نستقر فيه إلا منذ بضع ساعات فحسب .. وفى هذا إشارة أيضًا للتصور الثانى ، الأقرب للمنطق نوعًا ، وهو أن يكون هناك من يستغل شخصية (رجل الليل) مرة أخرى ، وبنفس الطريقة التى استغلها ذلك الذى لقى حتفه تحت الانهيار الجليدى ..

قال (عمر) مضيقًا حدقتيه ، وهو يعيد الصورة إلى المظروف :

ـ أو لعلهما شخصان من البداية ..

ـ هذا أيضًا تصور وارد ، مما لا يترك أمامنا مجالاً للتفكير سوى فى أمر واحد ..

ـ ألا وهو ... ؟!

ـ أن نبدأ بضربة استباقية .. نحاول أن نصل إليه قبل أن يصل هو إلينا ..

ـ (رجل الليل) ؟!

ـ لماذا أشم فى لهجتك رائحة تهكم ؟!

ـ ربما لأن هذا ما أفعله الآن .. أتهكم ..!!

قالها (عمر) ، فصمت (منصور) وعيناه الحادتان تسألان عن معنى ما يقوله ..

عاد (عمر) ينفجر :

ـ أنا لن أخوض مزيدًا من الحروب تحت قيادتك أو فى سبيلك .. لو صوَّر لك خيالك أننى سأنسى ، فهو وهم كبير لا يليق برجل فى مثل حنكتك ..

قال (منصور) فى صبر :

ـ أنا لا أطلب منك أن تحارب من أجلى أو تحت قيادتى .. أطلب أن تفعل ذلك من أجل نفسك ، ومن أجل (دينا) ، ومن هم على شاكلتكما من الضحايا الأبرياء .. لقد انبعثت عنقاء دموية من تحت رماد السنين ، تحت اسم وهوية (رجل الليل) ، وحتى الآن حصد الكثير من الأرواح لأجل غاية لا أحد يعلمها .. ليكن واحدًا أو عشرة ، لكنه جاهز فى كل الأحوال لكى يضرب ضربة جديدة ، وهو لن يهدأ حتى يقلب حياتنا جحيمًا ..

قال (عمر) :

ـ ومن يدرى ؟! ربما كان هو نفسه ضحيةً من ضحاياكم ..

ـ لو كان هو نفسه الرجل الذى تدخل فى المشروع السرى فى الماضى ، بين عامى 1980 و1981 ، فأنا أستطيع أن أضمن لك أنه ليس ضحية ، بل هو جلاد من الطراز الأول ، وهو الذى دفع المشروع نحو آفاق لم تخطر لأحد منا أن يجوبها ، وكان هذا إيذانًا ببداية النهاية ..

نظر (عمر) إليه مستفهمًا ، فاستطرد (منصور) :

ـ .. منذ عام 1974 ، العام الذى طرحت فيه فكرة المشروع السرى SP1979 فى اجتماع الدول الأعضاء الأول فى (واشنطن) ، وكل الدول الأعضاء (الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفيتى ـ فرنسا ـ كينيا ـ اليابان ـ مصر) ترسل مندوبين لها فى إطار اجتماع سنوى يرأسه كل عام رئيس وفد أحد البلدان بشكل دورى ، وهى مسألة شرفية بروتوكولية فى المقام الأول .. الاجتماع الأول مثلاً رأسته الولايات المتحدة ، والثانى رأسته فرنسا ، والثالث الاتحاد السوفيتى ، وهكذا .. ثم حدث فى عام 1979 ، وبعد الاجتماع الذى رأسته مصر ، والذى عقد فى (باريس) ، أن تعرض المشروع لعثرة مالية كادت أن تنهيه تمامًا .. حتى إن الاجتماع فى العام التالى 1980 قد تم إلغاؤه ، وكان اجتماع عام 1981 أيضًا فى طريقه للإلغاء ، لولا أن تدخل (فهمى زهران) ، الأب الروحى

للمشروع والذى كان يعقد عليه آمالاً عظمى ، واستطاع بطريقة ما أن يتوصل لطريقة مبتكرة فى الحصول على تمويل .. لقد عثر على ممول خاص يريد الإنفاق على المشروع بسخاء ، شرط أن تظل هويته سرية .. الجميع كانوا متخوفين فى البداية ، خاصة وأن المشروع كان يسير فى إطاره الحكومى السرى المرسوم له ، وإدخال أى طرف جديد يمكن أن يكون مخاطرة غير مأمونة العواقب ، إلا أن الأموال التى بدأت تضخ فى شرايين المشروع بالفعل جعلت الجميع يوافقون ، وفى عام 1981 تم الاجتماع السابع للمشروع بالفعل ، ولم يكن هذه المرة برئاسة وفد من الدول الأعضاء ، وإنما كان برئاسة (رجل الليل) الخفى بنفسه ، من وراء قناع الشخصية الكرتونية الذى يحافظ على إخفاء هويته به .. بل وقد استضاف الوفود جميعها فى إحدى الجزر النائية بالمحيط الأطلنطى ، تولت الطائرات الخاصة حملنا إلى هناك ، وقضينا بضعة أيام فى جزيرة الأحلام هذه كملوك متوجين ، كأننا عملاء سريون فى أحد أفلام العميل 007 !!

استحوذت القصة على اهتمام (عمر) إلى أقصى حد ، مما جعله يستحثه قائلاً :

ـ أكمل ..

ـ ما حدث بعد ذلك يحتاج إلى شرح مطـول ، يكفى أن أخبرك بأن المشروع تقرر إيقافه فى الاجتماع الأخير بـ (موسكو) تحت رئاسة الاتحاد السوفيتى ، ولم يحضر (رجل الليل) المزعوم هذا الاجتماع بالذات ..

هتف (عمر) فى عناد طفولى :

ـ هذه القصة لا تقول شيئًا ، أريد أن أعرف كل التفاصيل ..

ـ هذا أقل حق لك ، لكن فى البداية يجب ألا يسرقنا الوقت .. ما تقوله هذه القصة هو أنه إما أن (رجل الليل) القديم نفسه قد ظهر مرة أخرى ، ويريد الانتقام بسبب إنهائنا للمشروع رغم أنفه ودون الالتفات لمعارضته .. وإما أنه شخص آخر يستعير هويتـه لغرض نجهله ، ويسعى لكشف شىء ربما بغرض الكسب المـادى أو الانتقام أو لأى هدف آخر .. إنه تصور الاحتمالات المفتوحة على مصراعيها .. فى الحالتين نحن نجهل من هو ، ومـاذا يريد بالتحديد ، وفى الحالتين هو فى موقع قوة مكّنـه حتى الآن من قتل 3 جنرالات كـانوا زمـلاء لــى فــى وفـود فرنسـا واليابـان وروسيا .. ثم جاء الدور علىّ لكنى حتى الآن قد نجوت بأعجوبة قَدَرِيَّة ما .. وهـو يسعى خلفك وخلف (دينـا) بـالذات مـن أجل شفرة قيل له أنهـا مزروعـة فـى شريحتى رأسيكما .. فهل هى حربى أو حربك وحرب (دينا) يا عزيزى ؟!

عاد (عمر) يسأله فى قلق :

ـ ألم تفق من تأثير المصل الذى حقنوها بها بعد ؟!

ـ حتى أركبتها الطائرة لم تكن قد أفاقت من غيبوبتها ..

ـ وهل أنت واثق من أنها فى مأمن ؟!

نظر (منصور) فى ساعته ، وقال :

ـ المفترض أن تكون قد وصلت الآن ..

ـ إلى أين ؟!

ـ إلى مكان حرارته أكثر ارتفاعًا من هنا بكثير ..

لحظتها رن هاتف خلوى ، نظر نحوه (منصور) و(عمر) فى آن واحـد ، وأخـذ (منصـور) نفسًا عميقًا ، قبل أن يتجـه نحـوه ويغمغم :

ـ أتعشم أنهم يخبروننا أنها قد وصلت بأمان ..

* * *

4ـ الأميرة .. ورجال الكهف ..!!

على العكس من الثلوج التى تنهمر فى شتاء (هلسنكى) ، يبدو شتاء تلك الإمارة الصغيرة على شاطئ الخليج العربى معتدلاً ، مشبعًا بالرطوبة والدفء ..

الصحراء تحدها من جميع الجهات ، وهى واحة من مبان شاهقة وشوارع واسعة وأضواء لامعة فى قلب الليل ، أضواء تذكرك بـ (لاس فيجاس) نفسها .. فى سنوات قليلة استطاعت الإمارة أن تعبر الجسر بين البداوة والتحضر .. النفط الذى انفجر من باطن الأرض حمل معه الوعد بالخير والنماء ، ولم تهدر الأموال فى التراب أو فى مسارب الترف وما أكثرها ! وإنما استطاعت الإمارة أن تتحول إلى مدينة عالمية ، لها مكان ومكانة محفوظين فى جميع أنحاء المعمورة ، من أقصاها إلى أقصاها ، بقليل من التفكير وكثير من العمل ..

وفى قصر يطل على شاطئ الخليج ، جلست الأميرة (نوف) فى الشرفة ، مادَّةً قدميها لخبيرة التجميل اللبنانية التى تعمل على طلائهما ، والكف ممدودة إلى امرأة سودانية تنقش عليها (الحنة) بفن ومهارة ، بينما الخادمات الفلبينيات ترحن وتجئن هنا وهناك ..

الأميرة (نوف) امرأة خمسينية ، فيها جمال البادية القاسى ، وخشونة أنثى ملكة النحل التى تفيض بأنهار العسل .. تبدو ذات شخصية قوية ، حضورها طاغ ، امرأة مجتمع ذات أيادٍ بيضاء لاتُحصَى على مشاريع بيئية واجتماعية وثقافية وخدمية .. شهرتها فى مجالها بلغت الآفاق ، وهى تبدى تواضعًا تجاه ذلك لا يمكن وصفه بالزائف ..

تشاهد (نوف) عبر الشاشة الكبيرة فى الشرفة أخبار العالم ، تتألم للحروب والدماء والمجاعات وتحلم بعالم أفضل تعرف أنه (يوتوبيا) لا أمل فى تحققها إلا فى جنة مستحيلة ..

تحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمه التى لا تحصى ، ولاتشغل بالها كثيرًا بالأمر الخلافى الذى كان شغلها الشاغل فى سن أصغر : لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟! وهل عدم زواجها يُعَد نعمة تشكر الله عليها ، أم نقمة تحمد الله عليها أيضًا ؛ فهو الذى لا يحمد على مكروه سواه ؟!

كَفَّت عن التفكير فى هذا منذ زمن ، لم يعد فى العمر ولا فى البال متسع ..

هرولت نحوها سكرتيرتها السورية الخاصة وهى تقول :

ـ المصرية وصلت يا سمو الأميرة ..

لم تختلج فى وجه (نوف) عضلة ، أشارت للعاملتين على قدمها ويدها أن تبتعدا ، أشارت لهما بعينيها دونما كلام ، فامتثلتا ، ونهضت هى على الفور متجاوزة سكرتيرتها إلى خارج غرفة نومها كلها (لو بدأنا فى وصف الغرفة فيمكن أن نتقابل بعد ثلاث سنين من الآن على الأقل) ..

أمام باب الغرفة (لا مساحة لوصفها هى الأخرى ، الأثاث والديكور فى هذا النوع من القصور هو نوع مستقل بذاته من الأثاث) ، وقفت (نوف) تراقب الفلبينيات وهن يدفعن على رخام الأرضية اللامع سريرًا يسير فوق عجلات ، يدفعنه نحوها ..

خفق قلب (نوف) وهى تتطلع إلى السرير المقترب ، وفوقه (دينا) التى مازالت غائبة عن الوعى وعن الدنيا ، وإن كانت عيناها تتحركان فى سرعة أسفل جفونها المغلقة إلا قليلا .. خفق قلبها وداهمها شعور عنيف بالحنان الدافق نحو الفتاة ، وما إن توقف السرير أمامها عند باب الغرفة ، إثر إشارة مباشرة منها لخادماتها ، حتى أخذت أصابعها تربّت فى حنوٍّ على رأس (دينا) وشعرها الناعم ، بل ولم تتمالك نفسها فانحنت تطبع قبلة أمومية الطابع على خدها وجبهتها ..

ـ يا لك من ملاك برىء !!

همست بها (نوف) ، وتحركت السكرتيرة هاتفة فى الخادمات :

ـ هيا ، لا تقفن هكذا كالأصنام .. تحركن بها إلى غرفة الضيوف المجاورة ..

كادت الخادمات أن تتحركن بالفعل ، لكن إشارة أخرى من إصبع (نوف) الغارق فى حمرة الحناء أوقفتهن مجددًا ، ثم جاء صوتها الغارق فى عسل الحنان :

ـ لا تذهبن بها إلى أى مكان .. ستبقى معى فى غرفتى ..

قطبت السكرتيرة حاجبيها المرسومين فى غلاية ، وقالت مستهجنة :

ـ لكن يا سمو الأميرة .. لقد جهزنا لها جناح الضيوف الفاخر ، والطاقم الطبى المكلف بالعناية بها هناك أيضًا ..

قالت (نوف) بكل هدوء :

ـ لن تذهب إلى أى مكان سوى غرفتى يا (هناء) .. والطاقم الطبى سيتابعها هنا ..

حاولت المدعوة (هناء) أن تجادل :

ـ سوف يسبب هذا إزعاجًا عارمًا لك يا سمو الأميرة ..

ابتسمت (نوف) :

ـ انتظرى حتى أجأر لك بالشكوى إذن ..

فلم يكن أمام (هناء) سوى أن تسلّم قائلة :

ـ كما تحبين .. ادخلن بها إلى هنا يا بنات ..

وأشارت إلى غرفة الأميرة ، فدخل السرير إليها بسرعة ، واستقر بجوار المخدع الوثير فى الحال ..

صفقت (نوف) وهتفت فى الجميع :

ـ والآن اتركننى لبعض الوقت ، وسأستدعيكن عند الحاجة إليكن ..

دقيقتان ، ولم يكن هناك سوى الأميرة وسكرتيرتها ـ و(دينا) بالطبع ـ فى الغرفة ..

ـ أحضرى لى هاتفى الجوال يا (هناء) ..

امتثلت (هناء) على الفور ، وفور أن استقر الهاتف فى يد (نوف) ، سمعتها (هناء) تقول مخاطبة إياها :

ـ .. واتركينى وحدى من فضلك .. دقائق وسوف أقوم باستدعائك مجددًا ..

برز جانبا فك (هناء) كما يحدث عندما تتضايق وتحاول إخفاء هذا الضيق ببسمة مصطنعة ، وهزت رأسها لولية نعمتها ، ثم خرجت وهى تقاوم فورانًا عاطفيًا من الحقد الأسود تجاه هذه المريضة المجهولة ..!

هذا بينما ضغطت (نوف) زر الاتصال بـ (منصور) ، هناك ، فى (هلسنكى) ..

وانتظرت حتى يجيب الطرف الآخر ..

انتظرت .. بشوق ..

* * *

قال (منصور) وهو يختم المكالمة :

ـ مهما قلت لن أوفيك حقك من الشكر يا عزيزتى .. هذا موقف بطولى لن أنساه ما حييت .. إنها بالفعل فتاة يهمنى أمرها ، فى مقام ابنتى .. وافينى بالتطورات لو جَدَّ جديد ، وأنا بدورى سوف أتصل بك للاطمئنان عليها إذا سنحت فرصة .. إلى اللقاء ..

أغلق المحمول ، والتفت إلى (عمر) الصامت فى جلسته أمامه ، عيناه تكادان تطفران بالدموع ، وقال :

ـ .. هل أفسر لك ؟ أم أن كلامى فى الهاتف كان واضحًا ؟!

تنهد (عمر) ، وغمغم :

ـ المهم أنها بخير ..

ـ دعنا نأمل ألا تسوء الأمور أكثر ..

ثم إنه استجمع شجاعته ؛ لكى يسأله :

ـ .. والآن ، ما قولك ؟! هل أنت مستعدًا لخوض الحـرب التى تحدثنا عنها ؟!

قال (عمر) فى نبرة يائسة :

ـ وما الذى يفيده استعدادى من عدمه ؟! هبنى مستعدًا .. كيف سنجد (رجـل الليل) إن كـان لا يـزال حيًا أو كـان شريكًا لـه ؟! وأين ؟! إننا نفتقد لأى خيط واهٍ يمكن أن يقودنا نحوه ، بينما هـو يملك كل الخيوط القوية على ما يبدو ..

ـ وهذا سوف يكون مدخلنا نحوه ..

قطب (عمر) وتساءل :

ـ ما معنى هذا ؟!

أجابه (منصور) :

ـ معناه ببساطة ، أننا سنفكر بطريقته .. سنرى إلى أين يمكـن أن يتجـه ، ونتجـه بدورنـا .. لقد كـان لديــه هـدف واضــح مـن البداية .. رؤساء الوفود التـى شـاركت فـى اجتماعـات المشروع السرى .. لا بأس .. لدينا اثنان فى غاية الأهمية لم تصل أنبـاء عن مقتلهما بعد .. الكينى ، والأمريكى ..

أضاف (عمر) :

ـ والمصرى !!

ـ (فهمى زهران) انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل زمـن طويل ، وهو قد سعى خلفى ولم يقتلنى على الفور رغم أنه كان يملك أن يفعل هذا ، وكـان لديـه كـل الوقت والعتـاد .. إنــه يسـير وفـق إستراتيجية ما على ما يبدو ..

تساءل (عمر) باهتمام يشى بأنه قَبِل خوض الحرب فعلاً :

ـ وهل لدينا معلومات حالية عن رَجُلى كينيا وأمريكا هذين ؟!

ابتسم (منصور) فى أعماقه للمعنى الذى استنتجه من كلام (عمر) ، بسمة سحقها قبل أن ترتسم على وجهه ، ونهض فى جدية نحو حاسب آلى مفتوح على منضدة الصالون القريبة .. مد يده ووجَّه الشاشة نحو عينى (عمر) ، وقال شارحًا :

ـ الجنرال الأمريكى (همفرى جويات) ، كل معلوماتنا عنه أنه ترك الجيش فى أعقاب عملية (عاصفة الصحراء) أوائل التسعينات ، عمـل مستشـارًا لعدة شـركات واختفـى تمامًـا مـع بدايــة الألفيــة الجديدة .. يقال أنه تقاعد ورحل إلى مكان ما .. المعلومـات غير واضحة وغير مؤكدة . .

كان يشير إلى صورة رجل أبيض البشرة أشقر الشعر ، يبدو نموذجًا صارخًا للصرامة والحزم العسكريين ، وإلى جواره كانت هناك صورة أخرى لرجل أسود ، زنجى الملامح عريض فتحتى الأنف ، يبدو شامخًا بنفسه رغم كل شىء ..

تابع (منصور) مشيرًا إلى صورة الرجل الأسود :

ـ .. أما هذا فهو الجنرال (أوتولا رينبو) .. كان من رجال الجيش الكينى فى السبعينات ، وهذا انقطعت عنا كل أخباره بعد إلغاء المشروع عام ٨٤ ، وكنا نجهل حتى إذا كان حيًا أم قضى نحبه وسط موجات القلاقل والحروب والأوبئة التى تطحن (إفريقيا) ولا تذر فيها مخلوقًا .. لكن ، كان العثور على أثر له خلال الأيام الماضية إيجابيًا ، واستطعنا فى النهاية أن نعثر عليه حيًا يرزق ، فى (مونتريال) ، العاصمة الكندية .. إنه يعمل أستاذًا للقانون الدولى فى إحدى الجامعات ، وهو ناشط حقوقى ، وله إسهامات إعلامية كبرى سهلت لنا طريق العثور عليه ، بل والاتصال به أيضًا ..

تساءل (عمر) :

ـ الـ (نا) تعود على من ؟! من أنتم ؟! ومن يهتم الآن بالبحث عن أمور كهذه ؟!

تنهد (منصور) وهو يحاول أن يتجنب التفكير فيما وراء السؤال ، وأجاب فى صدق :

ـ مجهودات فردية يا عزيزى .. أنا من جهة ، اللواء (عفت) فى القاهرة مع بعض تلاميذه من جهة أخرى ، وأصدقاء هنا وهناك ، مازالت تربطنى بهم علاقات جيدة ..

أشار (عمر) إلى الهاتف المحمول :

ـ أصدقاء كهذه المرأة الخليجية ؟!

لم يميز (منصور) الجِدَّ من الهزل فى السؤال ، فقرر تجاهله كأن لم يكن ، وقال :

ـ بعد يومين تستضيف (نيروبى) مؤتمرًا دوليًا كبيرًا ومهمًا للغاية حول تغيرات المناخ والاحتباس الحرارى ، سيقام فى مركز الأمم المتحدة هناك ، وستحضره وفود كثيفة من جميع أنحاء العالم .. سيلقى (أوتولا) محاضرة افتتاحية فى اليوم الأول من هذا المؤتمر حول الاتفاقيات الدولية الخاصة بتغير المناخ مثل اتفاقية (كيوتو) وغيرها ، لذا فهو فى (نيروبى) الآن كسائح عاد لموطنه الأم بعد سنوات طويلة .. وهناك يمكن أن نعثر عليه لو سافرنا على طائرة الغد إلى هناك ..

تساءل (عمر) فى جملة تقريرية :

ـ لكى نحميه من (رجل الليل) ؟!

أجاب (منصور) :

ـ الواضح أن (رجل الليل) هذا قد استمد معلومات كثيرة من أحد الجنرالات القدامى حسب تعبيره ، ربما يكون هذا الجنرال هو (همفرى) أو (أوتولا) أو غيرهما ، أوربما واحد آخر أقل منهما منصبًا وقيمة .. من يدرى ؟! لعلنا نفاجأ بأن (رجل الليل) ليس إلا واحد منهما فى النهاية ، أو لعله أداة فى يدى أيهما ..

هزّ (عمر) رأسه بالإيجاب قائلاً :

ـ فهمتك .. لن نفهم إلا إن ذهبنا إلى هناك ..

هزّ (منصور) رأسه بدوره ، قائلاً فى تأكيد :

ـ على طائرة الغد ..

وران عليهما الصمت ، كسد اعترض نهر الكلام ، غير أن النفوس المعذبة ظلت تلعق جراحها فى ألم ..

إنه حوار تأجل فحسب ، حول أشياء لن تموت ؛ لأنها غير قابلة للنسيان ، أو المحو ..

* * *

نفخت (مادلين تشايمر) هواء صدرها فى ملل ، نظرت فى ساعتها للمرة المليون ، لتجد أن (عزرا) قد تأخر إلى حد غير مقبول بالمرة ..

ساعة ونصف من التأخير عن موعده ، ولمّا يظهر له أثر ، لا هاتف يمكن الوصول إليه عبره ، لا عنوان ، لا شىء ..

أيكون هو الذى تراجع عن إتمام الصفقة كفأر مذعور ؟!

هاهى ذى تجلس على مقعدها المتحرك ، فى المطعم الفاخر الشهير بقلب (باريس) ، الذى أتمت فيه الاتفاق المبدئى معه ، وقد حجزته كاملاً لنفسها مرة أخرى بمبلغ باهظ ، والعاملون فى داخله ينتظرون إشارة منها بالبدء فى إنزال الأطباق ، بينما رجالها فى الخارج ينتظرون ظهور الرجل الذى يدعى (عزرا أهارون) ، فهو وحده المسموح له بالدخول إلى المطعم هذه الليلة ..

كادت (مادلين) تهتف فى عصبية لكى يخرجوها من هنا ، ويلغوا هذا العشاء اللعين ، لكنها قررت أن تتجمل بمزيد من الصبر والمثابرة ، مدة خمس دقائق أخرى ، وبعدها تقرر إن كان الأمر قد فشل ، وترى ما يمكنها فعله ..

أى شىء يمكن أن يكون قد حدث وعطله عن المجىء ، أى شىء .. ستنتظر خمس دقائق أخرى .. خمس دقائق فقط ..

الثوانى تمر سريعة بطيئة, لكن ...

يبدو أن الهدف قد ظهر أخيرًا ..

مهلاً ، المقترب من جهة المدخل ليس هو ..

إنه رجل آخر ، يبدو يهوديًا مثله كما يمكنك أن تقرأ بسهولة على ملامح وجهه ، هذا صحيح ، لكنه ليس (عزرا أهارون) ..

هذا أكبر سنًا وأضخم حجمًا ، لم تره من قبل لكن استقراء الصورة ليس صعبًا ..

كادت تهتف فى رجالها متسائلة ومقرعة ، غير أن الرجل كان قد أصبح فى مواجهتها تمامًا ، وقد تحدث بكل احترام وأريحية ، فقال ليلجم لسانها :

ـ عذرًا ، سيدتى الجميلة ، على اقتحامى لك بهذه الصورة ، كان يجب أن نلتقى مهما كلفنى الأمر ..

صاحت وقد احمرت وجنتاها بشدة من الغضب :

ـ من الذى سمح لك بالدخول ؟! كيف وصلت إلى هنا ؟! ماذا قلت للأغبياء الواقفين على المدخل ؟!

ابتسم (إيلى زامير / الداهية) ، وقال بنفس اللهجة المداهنة :

ـ ليس خطأهم بالمرة ، لقد أخبرتهم فى الخارج أننى (عزرا أهارون) ، الاسم الذى أعطيته لهم بنفسك يا سيدتى ..

نظرت إليه سائلة فى استرابة :

ـ إنك تعرفه إذن ..

قال واقفًا :

ـ أكثر مما يمكنك التخيل يا سيدتى .. إننى هنا بشأن الصفقة التى تزمعان عقدها سويًا ، ولو تكرمتِ بالسماح لى بأن أجلس ، فيمكننى أن أوضح الصورة بطريقة أوضح وأفضل ، هل من الممكن أن أطمح فى هذا الرضا السامى ؟!

أشارت بكفها إلى المقعد الشاغر المواجه لها عبر المنضدة ، فجلس (إيلى) خالعًا قبعته ، وقال شابكًا أصابع كفيه :

ـ سأبدأ من النهاية .. إن الملف الذى تريدين شراءه لهو فى حوزتى الآن ..

التمعت عينا (مادلين) وقالت :

ـ رائع .. إنك لا تضيع وقتًا على الإطلاق ..

ـ هذه إحدى مواهبى .. سؤالى هو إن كان اهتمامك لا يزال معلقًا بأمر هذا الملف ..

ـ بالتأكيد ..

ـ إننى أعلم بعض تفاصيل العرض الذى قدمتِه إلى أدون (أهارون) .. وهو عرض بخس للغاية ، يعرض سمعة العاملين فى هذه المهنة إلى الخطر ، باعتبارهم رخيصى السعر ، ناهيك عن كونهم أغبياء بالسليقة ..

ـ مليونا يورو ليسا بالمبلغ الضئيل على الإطلاق ..

ـ المسألة نسبية .. وهى عرض فى مقابل طلب ..

ـ لنجعلهما ثلاثة ..!!

ضحك (زامير) ، فقطبت (مادلين) فى انزعاج وهتفت :

ـ ما الذى يضحك ونحن نتحدث بمنتهى الجدية ؟!

ـ عذرًا ، لكنك لم تفهمى مطلبى بعد على ما يبدو ..

صاحت :

ـ كم تريد ؟! عشرين مليون يورو ؟!

ـ كدفعة مقدمة فقط ..!

ـ .... ؟!

ـ صمتك يشى بأنك قد بدأتِ تفهميننى يا سيدتى الجميلة .. أجل ، إننى أطالب بمئتى مليون يورو مقابل الملف الذى ترومينه ..

عادت تصيح :

ـ كم ؟! هل تخدعنى أذناى ؟!

صمتة ، جعلها تضحك فى عصبية وتقول :

ـ ..هذا جنون .. جنون مطبق ..

ـ أخبرتكِ أن المسألة عرض وطلب ..

ـ لكنه ليس مبلغًا ضخمًا فحسب .. إنه المبلغ المستحيل .. أنت تريد أن تقطع على طريق الشراء قبل حتى أن أمشى فيه ..

ـ دعينا لا نمارس ذكاء التجار على بعضنا البعض ، ففى هذا المضمار لن تفلحى أبدًا فى مساومة يهودى .. دعينا نحسبها بالورقة والقلم ، إنكِ تملكين ثروة تقدر بعشرة بليون يورو ، ماذا يضيرك لو دفعتِ إذن مائتى مليون فى أمر ترغبين فيه حقًّا إلى هذا الحد ؟!

ـ إننى لا أملك هذه النقود فى حالة سائلة .. إنها أصول مشاريع وممتلكات وخلافه ..

- هذه مشكلتك الشخصية وعليك وحدك أن تحليها فى أسرع وقت .. ولنر إلى أى مدى ستنجحين فى خلال عشرة أيام من الغد فى الحصول على هذا المبلغ فى حالة سائلة .. لنر إلى مدى تريدين الحصول على هذا الملف يا سيدتى ..

قالها وهو يستعد للنهوض ، فنظرت إليه فى غل ، وتساءلت :

- إلى أين ؟!

- اعذرينى فأنا أنام دون عشاء ، لا يمكن أن أثقل فى طعامى وأنا بهذه السن ..

سألته على الفور :

- أ .. أين ذهب (عزرا) ؟!

وضع (الداهية) قبعته فوق رأسه الأشيب ، وقال :

- لا تسألى عنه ، فلن تريه أبدًا بعد اليوم .. إلى اللقاء يا سيدتى الجميلة ..

ومضى مبتعدًا ، تاركًا إياها تغلى ، وقد اشتعلت وجنتاها أكثر وأكثر ، بحمرة الغضب ..

* * *

تباشير الفجر تلوح من خلف الجبال الوعرة ، وبضعة رجال ملتحين فى جلابيب ومعاطف ، يفرغون من أداء الصلاة فى شعبة من شعب الجبال ، يسلمون على بعضهم البعض ، يفركون أسنانهم بالمسواك ، يبتهلون إلى الله أن يهديهم سواء السبيل ، ثم يكملون مسيرهم فى الدروب الضيقة الوعرة ، نحو هدفهم الخفى ..

الكهف هناك ، فى جانب مستتر من سفح أحد جبال المنطقة الحدودية ، بين (باكستان) و(أفغانستان) ..

يسيرون الهوينى خلف دليل يحفظ معالم الطريق ، بينهم دابة لا يجلس فوقها أحد ، يتدلى على جانبى ظهرها جرابان مليئان بالمؤن والعتاد .. صار لهم أكثر من يوم ونصف منذ بدأت الرحلة للقاء الرجل الكبير ، الذى بأمرٍ واحد منه هم على استعداد لعمل أى شىء مهما عظم ، والتضحية بكل غال ونفيس ، المال والأهل والولد والحياة نفسها .. ولِمَ لا ؟ أليس هو ولى الأمر ويتوجب عليك نحوه السمع والطاعة ، حتى ولو أكل مالك وأمر بجلدك دونما جريرة ارتكبتها ؟! ما بالك إذن والرجل ليس كذلك ؟!

إنهم يروون كثيرًا عن حلمه وعدله ورفقه ، أحلامه الواسعة لخير البشرية جمعاء .. دولة إسلامية عظمى وعظيمة يرفرف فوقها علم الخلافة .. لا مكان فيها لفسق أو فجور أو فحشاء ..

لا غناء ولا رسم ولا تمثيل إلا فيما يرضى الله ، ولا امرأة تتعطر متبرجة فى الشارع لتفتن شباب الإسلام .. رجال باعوا الدنيا واشتروا الآخرة ، يحرصون على الصلاة والصوم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. العودة الحميدة إلى عصر الدعوة الذهبى .. عصر النبوة إن أمكن .. أى حلم أعظم من هذا وأجلّ ؟!

لا يهم أن تذهب فى سبيل ذلك بعض الأرواح ، فمثواها فى النهاية جنة الخلد بين الحور والغلمان .. هو نفسه ــ الرجل الكبير ــ ترك كل متاع الدنيا الزائل ، مليارات عائلته وميراثه الضخم ، باع نفسه لخدمة الدين والقضية وإعلاء كلمة الحق .. ترك فرصة التمتع بالقصور والنساء واليخوت ، وجاء إلى هنا لكى يطارد حلمه الثورى ..

إنه النسخة الإسلامية من (جيفارا) العظيم ..!

أكثرهم سعادة بلقائه كان (أبو معاذ) ، شاب فى مقتبل العشرينات ، يحمل قلبًا خفاقًا وروحًا مغامرة ووجهًا وسيمًا ، لم يكن هذا اسمه بطبيعة الحال ، لكنها الكنية المباركة التى ينادون بها بعضهم البعض ، يختارها لهم الشيخ الذى يصلون خلفه ويستمعون منه إلى الدرس الأسبوعى عن فضائل الجهاد وعلامات القيامة .. سمع (أبومعاذ) كثيرًا عن الرجل الكبير ، وعمل تحت لوائه لسنين

طالت ، دون أن تكتحل عيناه برؤيته وجهًا لوجه ، وهذه الرحلة الطويلة التى يستعينون فيها بالدعاء على وعثاء السفر وكآبة المنظر ، هذه الرحلة كلها من أجله هو فقط ، من أجل (أبى معاذ) لكى يلقى وجه أميره ، وينال رضاه وبركاته ، قبل أن يرحل ، ربما إلى غير عودة ..

كان قلبه يخفق باضطراب كلما اقتربوا من الكهف الذى أصبح الآن على مرمى أبصارهم ، يصور له خياله تفاصيل لقائه الأسطورى القادم بالرجل الأسطورة ، قبل أن ينقطع حبل أفكاره على صوت هادر مدو فى كبد السماء ، التى تلونت بالأصفر قبل الشروق بقليل ..

أسرع الرجال يهرولون إلى أسفل صخرة قريبة ، أخفتهم تحتها فى نفس اللحظة التى انفرجت فيها السماء عن طائرة استطلاع أمريكية ، مرقت سريعة كسهم ، واختفت عند الجانب الآخر من الجبل ..

تابعها (أبومعاذ) بعينيه فى غل ، وهو يفكر ..

الكفار ، أعداء الله ..

يتصورون أنفسهم فوق الجميع ، وفى النهاية لن يغلبهم إلا نحن .. (الله متم نوره ولو كره الكافرون) .. صدق الله العظيم ..

انتظر الرجال دقائق أخرى خوفًا من ظهور طائرة أخـرى ، ثـم خرجوا تباعًا ، وأكملوا طريقهم فـى صعود الطريق نحـو مدخل الكهف ، وهم يلهثون ..

واستقبلهم رجـال آخـرون ، لا يختلفون عنهم من حيث اللحى والملابس ، لكنهم يحملون أسلحة ، وقد قاموا بتفتيشهم جيدًا مـن باب الاحتياط الذى هو واجب ، وأمرهم كبيرهم بالانتظار هنيهـة ، قدم لهم خلالها الآخرون أكواب اللبن وثمار البلح المجفـف ، قبل أن يظهر كبيرهم مرة أخرى ، ويقول :

ـ أين (أبو معاذ) ؟!

تقدم الشاب وتكلم فى أدب شديد :

ـ هو أنا ..

ـ تقدم معى ولينتظرك الباقون ..

لم يستطع الشاب أن يمنع إحسـاس الفخر من التسلل إلى نفسـه ، وأن يمـلأ جوانحـه ، فظل ينطـق بالاسـتغفار وهـو يسـير وراء كبيرهم عبر دهاليز المغارة ، المظلمة تارة ، والمنيرة تارة أخرى بضوء الشروق الربانى ، المتسلل عبر فجوات السقف والجـدران ، حتى توقف الرجل عند نقطـة مـا بعينهـا ، وتوقـف خلفـه (أبـو معـاذ) بالتبعية ..

ـ تقدم أنت .. وأنا سأنتظرك هنا ..

استغرب (أبو معاذ) ، لكنه لم ينطق ، وتقدم بالفعل إلى الظلام الذى أشار نحوه الرجل ، والذى احتواه تمامًـا ، حتـى انشق عن غرفة صغيرة يجلس فيها رجلهم الكبير بنفسه ، كما رآه من قبـل مـرارًا فـى الصـور ونشـرات الأخبـار وشـرائط الفيديـو التـى يمررونها من آن لآخر إلى محطة تلفزيون عربية شهيرة ..

كان يجلس مبتسمًا فى سماحة ، ينظر إلـى (أبـى معـاذ) فـى أُبُوَّة ، ويشير له بإصبعه النحيل أن يتقـدم نحـوه ، فلم يشـعر الأخير بنفسه وإلا قد هجم محتضنًا اليد النحيلة بين كفيه ، ويدنيهـا مـن فمه ليقبلها فى إجلال يليق بصاحب المقام الرفيع ..

ظل الشاب جاثيًا لفترة لا يعلمها ، تجمد الزمـن بالنسـبة إليـه ، شعر بيد الشيخ الأخرى تربت على رأسه فأحس بأنه قد بلغ مقام الأولياء .. رفع الشيخ عينيـه نحـوه ، غمـره مرآه المـترنح بين ظلمة وضوء بالصفاء والسكينة .. أتى صوت الشـيخ الكبير مـن عالم آخر ، فحمله خفيفًا كريشة على أجنحة الهواء :

ـ أنت إذن الشهيد الجديد الذى سوف يتنسم عطر الجنة ..

قال (أبو معاذ) خافضًا عينيه فى خجل :

ـ وكلى شوق للقيا الشهادة يا فضيلة الشيخ ..

ـ هى أيضًا فى شوق للقياك .. غدًا ستكون فى معقل آخر من معاقل أعداء الله ، وقد أعددنا لكل شىء عدته .. ليس عليك إلا تنفيذ الخطوة الأخيرة ..

ـ هذا شرف ما بعده شرف ..

ـ سجلك نظيف وعزيمتك قوية ووجهك غير مألوف إلى هذا الحد .. ما الذى نريده أكثر من هذا ؟! لكن .. هل تدرك حجم المسئولية الملقاة على عاتقك ؟!

ـ إن شاء الله أكون أهلاً لها ..

ـ لا تأخذنك رحمة ولا شفقة بالكفار أعداء الإسلام .. لن ينهض الإسلام ثانية إلا اعتمادًا على سواعد الشباب من أمثالك .. هل تخشى الموت ؟!

بحماس هتف (أبو معاذ) :

ـ كلا بالطبع ..

اتسعت بسمة الشيخ الواهنة وهو يقول :

ـ على بركة الله إذن يا (أبا معاذ) ..

وامتدت يده نحو (أبى معاذ) بمظروف مغلق ، إذ تابع :

ـ .. الحق بطائرتك فالسفر طويل .. أنت تعلم أنك لن تكون فى حاجة إلى اللحية حتى لا تثير الشكوك من حولك .. هؤلاء الشياطين من الكفرة والأمريكان وأشباههم ، لا تفوتهم شاردة ولا واردة فيما يتعلق بالأمن .. لا تنس أننا فجرنا لهم من قبل سفارتهم فى نفس البلد ..

تناول (أبومعاذ) المظروف كمن يتناول قربانًا مقدسًا ، ضمه إلى صدره وقد أغلق عينيه فى خشوع ، وتنهد مغمغمًا :

ـ ستمضى الخطة كما قدر الله سبحانه وتعالى لها أن تمضى ..

ـ اذهب يا (أبا معاذ) ، ولتكن رسالتنا إلى العالم ، أننا موجودون ، وسنكون دائمًا شوكة فى ظهور الكفار وأعداء الله ..

نهض (أبو معاذ) ، واستدار نحو الظلام مجددًا ، وعندما خرج من الكهف فى زمرة الرجال ، فض المظروف ، ووجد داخله حفنة لا بأس بها أبدًا من الدولارات ، وتذكرة على أول طائرة متجهة إلى (نيروبى) بعد عدة ساعات ..

* * *

5ـ لقاء فى (نيروبى) ..

يبدو مبنى السفارة الأمريكية فى (نيروبى) ـ الذى تم تفجيره فى ١٩٩٧ على أيدى قوات (القاعدة) ـ أشبه بقلعة حصينة، يحيط بها سلك شائك على مسافة كبيرة من المبنى نفسه، وينتشر رجال الحراسة المدججون بالسلاح على امتداد السور بكثافة، كتحذير صريح فى مواجهة أية عملية إرهابية مشابهة ..

على الجانب الآخر من الطريق الذى يخترق قلب منطقة الأحراش التى تقع فيها السفارة، يقع مبنى الأمم المتحدة الإفريقى، حراسته أقل بالطبع كونه يحوى عاملين من مختلف الجنسيات ـ لا الأمريكيين فحسب ـ لكنه يتمتع بحراسة معقولة وإجراءات على أعلى مستوى ..

هذا ما فكر فيه (آدامز ماكبرايان)، والسيارة التى أقلته من المطار تتوقف أمام بوابة السفارة، وبعد التأكد من الهويات والأوراق وبصمات الأصابع سمح لها بالدخول ..

عندما صافح (آدامز) السفير الأمريكى فى (كينيا)، كان الأخير باسمًا يرحب به فى حفاوة تدل على ارتفاع شأنه :

ـ تفضل يا سيد (ماكبرايان)، لقد التقينا من قبل فى (لانجلى)(*) إن كنت تذكر ..

(*) مقر مبنى المخابرات المركزية الأمريكية CIA ..

لم يبادله (آدامز) الابتسام ولا الحفاوة، وقال إذ جلس بملامحه الصارمة :

ـ لست ممن ينسون أى شىء يا سيادة السفير .. أتعشم أن تكون من هذا النوع أنت الآخر ..

ـ أنا وكل رجال السفارة طوع بنانك يا سيدى ..

ـ أتصور أن لديك بعض المعلومات حول أسباب مجيئى إلى هنا فى هذا الظرف الحرج ..

ـ ليس الكثير، أبلغونى عبر وزارة الخارجية أن هناك معلومات وردت عن ضربة متوقعة للقاعدة فى هذه الأيام ..

ـ نحن أيضًا لا نملك الكثير من المعلومات، لكننا لا يجب أن نترك شيئًا للصدفة، ويجب ألا نتركهم يفاجئوننا ..

ـ لقد أصدرنا تحذيرًا لكل رعايانا فى (نيروبى)، وقمنا بترحيل بعضهم بالفعل ..

ـ سمعت بالنبأ من نشرات الأخبار، لكن هذا وحده لا يكفى يا سيادة السفير .. إنه كفيل بإثارة الذعر أكثر من أخذ الحذر .. وهو يحقق للإرهابيين بعض أهدافهم المتعلقة بالعرض الإعلامى الذين يهدفون إلى تحقيقه، إضافة إلى أنه قد يدفعهم نحو استعراض المزيد من قوتهم، بدفع الأمور نحو حافة تفجيرات جديدة مثلاً ..

ـ اجتهدنا قدر ما نستطيع ، وفى النهاية مازلت عند كلمتى .. كلنا طوع بنانك يا سيدى ..

صمت (آدامز) ، وأخرج من حقيبته السوداء الصغيرة جهاز حاسوبه النقال المتطور ، سارع بفتحه ملتزمًا المزيد من الصمت ، وأشار إلى وثائق بدأ يفتحها على شاشته تباعًا ، بقوله :

ـ نتوقع ألا تكون الضربة هذه المرة موجهة إلينا هاهنا فى السفارة ، وإنما إلى مبنى الأمم المتحدة المقابل .. خصوصًا مع افتتاح المؤتمر نهار الغد ..

ـ إنها فرصة مثالية لأى إرهابى بالفعل .. وفود جميع دول العالم فى مكان واحد .. أكثر من ٦٠٠٠ شخص على أعلى مستوى فى كل دولة .. ما الذى يمكن أن يحلم به أى إرهابى أكثر من هذا ؟!

ـ هذا ما وددت قوله .. وعملية البحث فى قوائم المشاركين ونزلاء الفنادق والقادمين على مختلف خطوط الطيران سوف تعد عبثًا كما يمكنك أن ترى ، لدينا أكثر من ألف شخص يصلح كل منهم لكى يكون إرهابيًا تحت التغطية بمنتهى الجدارة ..

هزَّ السفير رأسه إيجابًا ، وانتظر أن يبلغ به (آدامز) النقطة المرجوة ..

ولم يجعله (آدامز) ينتظره طويلاً ، إذ استطرد :

ـ .. لدينا بلاغ حول شخصية محددة يمكن أن تكون ضالعة فى العملية المرتقبة ، وجه ظهر فى (نيروبى) بالفعل صباح اليوم ، ينتمى إلى بلد يفرز الكثير من الإرهابيين .. لقد دخل متخفيًا فى هوية صحفى ألمانى ، لكن المعلومات التى جمعناها عنه تقول : إنه مصرى ، وإن كانت صلته بالقاعدة والمنظمات الإرهابية ما زالت فى طور البحث والتقصى ..

وظهرت صورته على الشاشة ، ليلتهمها السفير بعينيه ..

ـ .. ها هو ..

كانت صورة واضحة تمامًا له ..

لـ (عمر زهران) ..!

ـ ولماذا لم تلقوا القبض عليه حتى الآن ؟!

ـ مازال البحث عنه جاريًا فى أنحاء (نيروبى) .. يجب أن نشدد الحراسة على مبنى الأمم المتحدة غدًا ، ولو ظهر هذا الشخص بالذات ، فمعنى هذا أن البلاغ الذى ورد بشأنه لم يكن خاطئًا ..

تراجع السفير بظهره متسائلاً بحاجبين معقودين :

ـ دعنى أسألك ـ لو لم يكن الأمر مندرجًا تحت بند السرية ـ من الذى أبلغ عن هذا الشخص تحديدًا ؟!

ضيق (آدامز) حدقتيه ، وأجاب :

ـ مع الأسف لن أستطيع منحك جوابًا دقيقًا .. لكنه شخص تربطنا به علاقة خاصة جدًا ، من نوع خاص جدًا .. أعلم أن هذا سوف يزيد من حيرتك ، لكنها الإجابة الوحيدة التى يمكننى منحها إياك ..

عاد السفير يحدق فى الصورة على الجهاز ، آملا فى قرارة نفسه أن تمر أيام المؤتمر فى سلام ، حتى لا يترتبط اسمه بحادث من هذا النوع الذى يدخل بالإنسان إلى التاريخ من أبوابه الخلفية ..

* * *

سَلْ عن مطعم (كارنيفور) فى (كينيا) ولن تجد شخصًا يجهله ..

هو مطعم له عدة فروع ، متخصص فى تقديم أصناف من لحوم حيوانات الصيد .. لن تجد مطعمًا غيره يقدم لحوم التماسيح والغزلان والجمال والطواويس (على سبيل المثال لا الحصر) وعلى مائدة واحدة ! ، افتتح له عدة فروع أخرى على امتداد القارة الإفريقية ومع ذلك بقى من علامات ومعالم (كينيا) المميزة ..

بداخله ، كان يجلس (عمر) فى مواجهة (منصور) على مائدة واحدة ، والتوتر قد بلغ من كل منهما مبلغه إلى حد أن أيديهما لم تمتد إلى الطعام أمامهما ..

ـ هل تأخر ؟!

تساءل (عمر) ناظرًا فى ساعته ، فأجابه (منصور) مطمئنًا وهو يشير إلى رجل أسود كهل يقترب منهما :

ـ كلاً ، ها هو ذا ..

نظر (عمر) إلى (أوتولا) المقترب منهما ، وقد هاله أن يكون بهذا الطول وهذه النحافة كما لم تبين صورته الشخصية على الحاسوب النقال فى (هلسنكى) ..

نهض (منصور) وصافح (أوتولا) فى اشتياق قائلاً :

ـ يا له من زمن بعيد يا جنرال ..

ابتسم (أوتولا) كاشفًا عن صف من الأسنان البيضاء ، وقال :

ـ لم أعد جنرالاً يا عزيزى .. الآن أنا البروفسير (أوتولا رينبو) .. ذهبت أيام العسكرية إلى غير رجعة ..

ـ لا تقل لى أنك لم تشتق إليها ..

ـ لدىَّ الآن اهتمامات أخرى .. لابد أنك قد عرفت هذا عندما بحثت عنى ..

ـ عرفت ، وظننت أنك لن تعيرنى التفاتًا عندما أطلب لقاءك تحت ضوء هذه التغيرات .. غير أنك لحسن الحظ قد خيبت ظنى ..

ـ لقد عرفتك على المستوى الإنسانى يا (منصور) ، ولولا هذا لما قابلتك بالفعل .. لكن قولك يجعلنى أشعر بأن طلبك لقائى لم يكن بغرض الصداقة فحسب ..!

قالها (أوتولا) فى جدية حملت معنى واضحًا :

لو كان الأمر يتعلق بالمشروع السرى القديم ، أفضل أن أكون خارج الصورة ، وأن ينتهى هذا اللقاء الآن على الفور .. قال هذا ولكن بطريقة مهذبة..

غالب (منصور) حرجه ، وأشار إلى (عمر) الجالس بينهما يستمع فى استكانة :

ـ أقدم لك (عمر) ، أحد تلاميذى ، ضحايا المشروع القديم ..

نظر (أوتولا) إلى (عمر) فى خواء ، ثم عاود النظر إلى (منصور) مستهجنًا :

ـ لهذا طلبت لقائى إذن ..

ـ (أوتولا) ، إننى ...

هتف (أوتولا) فى عصبية :

ـ لقد انقطعت صلتى بالماضى تمامًا ، ولا أريد حتى أن أتذكره ..

هتف (عمر) بدوره :

ـ الماضى يطاردنا جميعًا يا سيدى ..

وبالقصور الذاتى أكمل ، أمام عينى (أوتولا) المندهشتين :

ـ .. شخص يدعى (رجل الليل) قد قلب المائدة فوق رءوسنا جميعًا .. أربعة من رفاقكم القدامى قد لقوا حتفهم على يديه بالفعل ، ولا شك أن دورك فى القائمة سوف يأتى يا سيدى ..

ران الصمت للحظة ، قبل أن يجلس (أوتولا) ، ويستمع من (منصور) للقصة كلها ..

فى النهاية هز (أوتولا) رأسه وتمتم :

ـ هذا مفهوم بالقطع .. ما جنته أيدينا كان لابد وأن ينقلب علينا يومًا .. وها هو اليوم قد أتى أخيرًا ..

قال (منصور) :

ـ لقد راودنى الشك للحظة أن تكون أنت أو (همفرى جويات) على علاقة بـ (رجل الليل) هذا ، أو ربما يكون هو أحدكم ..

ـ لست أنا ، إننى بعيد كل البعد عما يحدث فى هذا العالم المظلم ، الذى غسلت يدى منه منذ زمن بعيد .. لا أستبعد فكرة أن يكون (جويات) متورطًا بشكل أو بآخر ..

سأله (منصور) فى لهفة :

ـ وهل تعرف أين يمكن أن نجده ؟!

ـ إنه لم يترك الخدمة العسكرية بعد ..

ـ لكننا لم نجد له أثرًا فى كل الوثائق المتاحة ..

ـ هذا لأنه يشغل منصبًا رفيعًا فى هيئة محاطة بالكثير من علامات الاستفهام ..

ـ أى هيئة تقصد ؟!

ـ معسكر (أشعة إكس) .. هل يَرِنّن هذا جرسًا ؟!

ـ معتقل (جوانتامو) ؟!

ـ أجل ، هو المسئول عن كل الموبقات التى تحدث فيه .. وجدت اسمه قد قفز أمامى عندما توليت مشروعًا كنديًا يهدف إلى وقف التعذيب حول العالم ..

كان (عمر) يستمع فى صمت .. صمت يخفى وراءه بركانًا متفجرًا ..

قال (منصور) :

ـ إن لم يكن مسئولاً عما يجرى ، فدوره قادم لا ريب .. مثلى ومثلك تمامًا ..

ـ أنا لا أخشى الموت ..

قالها (أوتولا) ، ثم تابع فى شجاعة حقيقية :

ـ .. وأعتقد أننى على استعداد تام لدفع نصيبى مما حدث .. أشكركما على تحذيرى على أية حال ، لكن هذا التحذير لن يدفعنى لتغيير شىء .. ما سيحدث سيحدث ..

غمغم (منصور) بلهجة مغموسة فى الألم :

ـ يبدو أنك قد وجدت خلاصك يا عزيزى (أوتولا) .. ليتنى أجده أنا الآخر ..

ـ لم أجد خلاصى يا (منصور) .. أكذب لو قلتها .. ما زال الضحايا الذين دفعت بهم إلى التجربة يلحون على كوابيسى وأحلام يقظتى .. أحاول بانخراطى فى العمل العام أن أعوض العالم عن ذنوبى ، لكننى أعرف يقينًا أن هذا لن يكفى .. كم شاب مازال يعانى حتى الآن بسبب ما فعلته به فى السابق !.. لو تقابلنا فلن نعرف بعضنا البعض .. لكن ، لو أتى واحد منهم واقتلع قلبى بقبضة يده ، عندها ، عندها فقط .. يمكننى أن أتحدث عن الخلاص ..!

قالها (أوتولا) ونهض ، بينما غاب (منصور) فى بحر الشرود واستطرد (أوتولا) ..

ـ .. بما أنكما هنا ، فلتأتيا غدًا إلى محاضرتى الافتتاحية عن معاناة الدول الفقيرة من مغبة المخلفات البيئية التى تطلقها الدول الصناعية ، فى مبنى الأمم المتحدة ..

قابلا دعوته بالصمت ، فتوجه (أوتولا) ببقية حديثه إلى (عمر) :

ـ .. هوّن عليك أيها الشاب .. أعلم ما عانيته بسببنا ، ولك الحقُّ فى أن تكيل لنا ما شئت من اللعنات .. لا تفهم من كلامى أننى أدعوك إلى أن تغرس سكينك فى صدرى أو فى صدر (منصور) ، لكنى أعنى أنك لا تزال يافعًا رغم كل شىء .. وأوان البدء من جديد لم يفت .. صدقنى لم يفت بعد ..

ـ سننهض معك ..

قالها (عمر) وهو ينظر إلى (منصور) الذى أفاق من شروده ، ونهض خلفهما ..

فى ساحة انتظار السيارات أمام المطعم ، كان هناك شابان أسودان والاثنان بعينين نصف مغمضتين فى داخل سيارة دفع رباعى ضخمة ، أحدهما أمام المقود والآخر بجواره يتحدث فى هاتف محمول :

ـ إنه يخرج الآن يا سيدى ، بصحبة رجلين .. لا بأس ، علم وينفذ ..

أغلَق الهاتف المحمول ثم مال إلى صاحبه يقول :

ـ .. الأوامر أن نقتل الثلاثة ونحمل رءوسهم إليه ..

ـ علم وينفذ ..

كان الثلاثة ـ (عمر) و(منصور) و(أوتولا) ـ يقفون بجوار سيارة الأخير لتبادل مصافحة أخيرة وبعض المجاملات ، عندما دارت السيارة القريبة منهم ، وانطلقت نحوهم على الفور ، وعجلاتها تزأر فوق الأرض ، يقودها أحد الشابين ، والآخر قد دلّى نفسه خارج النافذة الجانبية المجاورة لمقعده ، مصوبًا نحوهم مدفعًا رشاشًا ..

وانطلقت الرصاصات ..

سارعوا بالانحناء ، والسيارة تقترب منهم ، والرصاصات تعبر فوق رءوسهم إلى جسم السيارة ، وسارع (عمر) بإخراج مسدسه ليطلق رصاصتين على السيارة ، أصابت إحداهما المصباح الأمامى الأيمن ، بينما طاشت الأخرى ..

استمرت السيارة تقترب منهم ، فسارعوا بالركض جميعًا ..

ـ من هنا ..

صاح بها (عمر) ، مشيرًا إلى سيارته المستأجرة الرابضة فى الجوار ، وقبل أن تلتف السيارة الكبيرة حول نفسها ، كان الثلاثة قد بلغوها واندسوا فى داخلها ، وكان (عمر) قد أدارها وانطلق بها مبتعدًا على الفور ..

وبدأت المطاردة ، سيارة (عمر) تنهب الطريق الأسفلتى الضيق ، وخلفها سيارة الدفع الرباعى وأمطار الرصاصات ..

هتف (أوتولا) لاهثًا من الأريكة الخلفية ، وهو يخفض رأسه إذ الرصاصات تخترق الزجاج الخلفى وتهشمه :

ـ إنهم يريدوننى بالتأكيد ..

احتمى (منصور) بمقعده من وابل الرصاصات وهو يقول :

ـ وربما أنا .. أو نحن الاثنان معًا .. المهم هو من هؤلاء ؟!

هتف (عمر) وهو يراوغ بالسيارة ويتجاوز سيارة مبطئة أمامه :

ـ المهم الآن أن ننجو بأعمارنا .. أو ما بقى منها ..

وضغط دواسة الوقود أكثر ، فزادت سرعة السيارة التى تطارده ، وانعطف (عمر) بالسيارة فى شارع واسع مضاء ، لتبدأ سرعته فى الانخفاض تدريجيًا ..!!

ـ ما الذى تحاول فعله يا (عمر) ؟!

هتف به (منصور) ، فأجاب مقطبًا :

ـ لا أحاول فعل أى شئ .. إن الوقود قد نفد ليس إلا ..!!

ـ ماذا ؟!

صرخ بها (أوتولا) مرتاعًا ، والسيارة تَقِل سرعتها تدريجيًا حتى توقفت تمامًا فى منتصف الشارع ..

ـ .. ماذا سنفعل الآن ؟!

أتبع بها (أوتولا) قوله ، فمد (عمر) يده وضغط زرًا فى السقف ، وبدأ الجزء المتحرك من السقف فى الانفتاح عن مستطيل كبير ..

ـ سنقاوم .. وهل نملك غير هذا ؟!

قالها (عمر) فى حزم ، واندفع واقفًا فى منتصف السيارة ، ليبرز نصف جسده العلوى عبر فتحة السقف ، وهو يواجه السيارة الضخمة المقتربة منه فى سرعة عارمة ، ورصاصات المدفع الرشاش التى لا زالت تنهمر ، بمسدس صغير ..

مد (عمر) ذراعه ، وصوب المسدس بدقة ، ثم أطلق رصاصة واحدة ..

رصاصة اخترقت رأس السائق ، فمالت السيارة إلى جانب الطريق ، وعلا من داخلها صياح الشاب الثانى ، والسيارة تنقلب أكثر من مرة ، حتى استقرت على الجانب ..

رصاصة أخرى أطلقها (عمر) نحو السيارة ، ثم عاد إلى الكهلين ..

ـ ماذا فعلت ؟!

غمغم (منصور) بالسؤال ، فأجابه (عمر) :

ـ أطلقت رصاصة على ...

وقبل أن يكمل عبارته انفجرت السيارة بعنف على جنب الطريق ..

ـ .. خزان الوقود ..

ارتفعت النيران البرتقالية ، ولهث (أوتولا) متسائلاً :

ـ الآن ماذا ؟!

فتح (عمر) باب سيارته على الفور ، وهمَّ بالهبوط وهو يقول :

ـ الآن نبتعد قبل وصول الشرطة ، ولنر بعدها ما يمكن أن نفعله ..

وهبطوا بالفعل ، مبتعدين عبر غابة جانبية إلى حيث بعض الأمان ..

يتابعهم زوجان من العيون من سيارة رابضة على مقربة ..

زوجان من العيون ، مختبئان خلف قناع كرتونى ، لشخصية شهيرة ..!!

* * *

6ـ المؤتمر ..

رفرفت الأعلام المرتفعة على جانبى الطريق الممتد من مدخل مبنى الأمم المتحدة الإقليمى للقارة الإفريقية بـ (نيروبى) ، إلى قاعات المؤتمر بالداخل ، فى صباح يوم المؤتمر الصحو ، وقد بدأت وفود الدول التى تمثلها الأعلام فى التوافد ، إضافة إلى جموع الصحفيين والإعلاميين وأعضاء المنظمات البيئية الخاصة والأهلية ، مما صنع زحامًا كبيرًا عند المدخل إلى حد صعبت السيطرة عليه ، فى ظل الإجراءات الأمنية الصارمة ، رغم تعاون الجميع على الانتظام من أجل إنهائها فى الوقت المطلوب ..

اندفع رجل المخابرات الأمريكية (آدمز ماكبرايان) وسط الجموع المتحلقة عند بوابة التسجيل الخارجية ، دافعًا شخصًا فى كتفه بغلظة غير مقصودة ؛ فقال :

ـ معذرة يا سيدى ..

ثم واصل طريقه إلى الداخل ..

ولم يكن الرجل الذى دفعه فى كتفه سوى (أبى معاذ) ، وقد حلق لحيته وصبغ شعره باللون الأشقر وارتدى ملابس أنيقة نظيفة إضافة إلى نظارة طبية فوق عينيه ، وقد حمل على صدره بطاقة صحفية تشير إلى كونه (أمين حداد) صحفيًا من (لبنان) ..

استرق (أبو معاذ) نظرة جانبية إلى البوابة الكبيرة المغلقة جانب مركز التسجيل ، ورأى أحد رجال أمن المبنى ـ بملابسهم الزرقاء المميزة ـ يهرول لكى يفتح البوابة أمام ناقلة شحن ضخمة ، ولم يلحظ أحد تلك النظرة المسترقة التى أرسلها رجل الأمن إلى (أبى معاذ) بدوره بينما السيارة تدخل ، وتتوقف من أجل التفتيش ..

زفر (أبو معاذ) فى توتر ، وعبر من البوابة الأمنية التى أجرت مسحًا على بطاقته فتأكدت صلاحيته للدخول ، وانطلق إلى المركز الصحفى حيث يتوجب عليه الانتظار بضع ساعات ، ريثما ينتهى رجل الأمن المتواطئ فى الخارج من فحص سيارة النقل ، التى يفترض أنها تنقل شحنات من أوراق ومطبوعات وأقراص ليزر تخص معرض المنظمات الخاصة ، إضافة إلى مواد غذائية خاصة بحفل الافتتاح الذى سيقام فى آخر النهار .. سيمرر رجل الأمن المتواطئ صندوقًا مغلقًا دون فتحه ، عليه علامة مميزة ، وسيدخل الصندوق إلى الخيمة الكبيرة المقامة من أجل حفل الافتتاح ، على اعتبار أنه مواد غذائية بريئة ، بينما يحتوى فى الحقيقة على شحنة ضخمة من المواد المتفجرة ، يملك (أبو معاذ) وحده جهاز التحكم عن بعد الخاص بتفجيرها ..

وسيحدث هذا الليلة ..

عندما تنتهى المحاضرات والندوات والاجتماعات المفتوحة والمغلقة ، ويتسرب الجميع إلى الخيمة من أجل الطعام والشراب والرقص والمجون والعربدة ، عندها فقط ينفجر المكان ، ويذهب جميع من هناك إلى المكان الذى يستحقون الذهاب إليه ..

جهنم وبئس المهاد ..

كان (أبو معاذ) يرسل عبر جهاز حاسوب فى المركز الصحفى رسالة مشفرة بالبريد الإلكترونى ، إلى خلية من خلايا المنظمة ، يطمئنهم خلالها أن الأمور تجرى فى سياقها المرسوم حتى الآن ، وأنه سيقوم بما يتوجب عليه القيام به فى الوقت المناسب ، قبيل غروب الشمس بقليل ..

ولم ينس أن يختم رسالته بالشهادتين ..

أما (آدامز ماكبرايان) ، فقد أوصل حاسوبه بالحاسوب الرئيس لمركز التسجيل ، وبدأت البيانات الخاصة بالمشاركين تتدفق على شاشته ، وصور الحاضرين بالداخل تتوالى معروضة أمام عينيه ، بينما يتناول قهوته الأمريكية السوداء المفضلة ..

عدة ساعات مرت ، حتى توقف أمام صورة بعينها ..

صورة لـ (عمر زهران) ، وقد غير فى ملامحه بعض الشىء ، بلحية دائرية ، وعدسات لاصقة أعطت عينيه اللون الأخضر الفاتح ،

وبجمة من الشعر الأسود المجعد فى حلقات صغيرة ، وبهوية مشارك من منظمة أهلية برازيلية للحفاظ على كوكب الأرض ..

منظمة مختلقة ليس لها وجود بالطبع ..

برقت عينا (آدامز) وقد عثر على ضالته ، فهتف فى مسئول الأمن الذى يجلس بجواره مسترخيًا فى كسل :

ـ أطلق رجالك فى أنحاء المبنى يا عزيزى ، أريد هذا الرجل فى أسرع وقت ممكن ..

اعتدل مسئول الأمن وهو ينظر إلى حيث أشار (آدامز) ، وانطبعت بيانات (عمر) المزيفة فى ذاكرته ، قبل أن ينهض صاغرًا :

ـ لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً .. كن مطمئنًا يا سيدى ..

انطلق الرجل يعطى الأوامر ، بينما أمسك (آدامز) بهاتفه المحمول ، وطلب على وجه السرعة رقمًا فى (واشنطن) ، ليطلعهم هناك على آخر المستجدات ..

كان (عمر) فى هيئته المتناغمة مع صورته المنطبعة على بطاقة الدخول إلى المبنى ، التى أعطوه إياها بعد أن تم تصويره بكاميرا رقمية فى مركز التسجيل ، يجلس عند مقهى جانبى فى

داخل المبنى الواسع المترامى الأطراف ، وأمامه قدح من الشاى الكينى الشهير ، وبجواره على نفس المائدة يجلس العميد (منصور حرب) الذى أشارت بطاقته إلى اسم برازيلى مزيف ينتحله هو الآخر ، وأيضًا البروفيسور (أوتولا) ، الوحيد الذى يتطابق واقع حاله مع بياناته ، المطبوعة فوق البطاقة المعلقة بصدره ..

نظر (أوتولا) فى ساعته قائلاً :

ـ بقيت أقل من الساعة على محاضرتى .. ومعنى هذا أننى يجب أن أستأذنكما ..

زفر (عمر) فى حرارة ، ثم سأله :

ـ أما زلت مصرًا على إلقاء محاضرتك يا بورفيسور بعد كل ما حدث بالأمس ؟!

رفع (أوتولا) يده فى حزم :

ـ لا شىء يمكنه إثنائى عن واجبى ..

قال (عمر) فى دهشة :

ـ لكنك قد تفقد حياتك نفسها ..

ابتسم (أوتولا) قائلاً :

ـ أعتقد أننى قد عشت بما يكفى ..!

قال (منصور) لـ (عمر) :

ـ لا تجهد نفسك ، بعض الناس لا يمكنك أن تجبرهم على فعل شىء .. هكذا كان منذ عرفته قبل ثلاثين عامًا تقريبًا ..!

سألهما (أوتولا) :

ـ السؤال هو ، ما الذى يدفعكما إلى القدوم معى إلى هنا وقد أيقنتما مثلى بوجود خطر يتهدد ثلاثتنا معًا ؟!

أجابه (عمر) :

ـ نحن الآن فى قارب واحد يا بروفيسور ، ولنَطْفُ سويًا أو لنغرق سويًا ..

ـ وما الذى يمكننا فعله حتى لا نغرق ؟!

ـ ستنهى محاضرتك ونحزم حقائبنا معًا ، لنغادر (نيروبى) نحو الغرب ..

قالها (منصور) هذه المرة ، فقطب (أوتولا) قائلاً فى استغراب :

ـ هل تنوون المجىء معى إلى (كندا) ؟!

أجابه (عمر) :

ـ بل أنت الذى سوف تصحبنا إلى (الولايات المتحدة) ، يجب أن نلتقى مع الجنرال الأخير (جويات) ، ونرى فى صف من يقف هو ، وما الذى يمكننا فعله من أجل الوصول ـ معه أو ضده ـ إلى الحقيقة ..

فكر (أوتولا) فى صمت لحظة ، قبل أن يقول :

ـ يبدو منطقيًا ما تقوله يا فتى ..

اقترب نادل من جلستهم ، ووضع كوبًا أمام البروفيسور (أوتولا) ، وسارع بالابتعاد ..

ـ .. سأشرب عصير فاكهة (الباشن) هذا وأمضى إلى محاضرتى ..

ورفع الكوب إلى شفتيه ليجرع منه جرعة كبيرة ، قبل أن يواصل :

ـ .. وبعد أن أفرغ منها يمكننا أن ننطلق إلى الغرب رأسًا ..

ـ سننتظرك هنا ، وخلال هذا سنتناول الكثير من عصير (الباشن) المجانى مثل هذا ..

قالها (منصور) على سبيل الدعابة مشيرًا إلى الكوب الذى أفرغه (أوتولا) فى جوفه عن آخره ، بينما كان (عمر) منشغلاً بالتحديق فى نقطة بعيدة ، عند بوابة إحدى القاعات التى تزدحم بالواقفين أمامها ..

لقد خيل إليه للحظة أنه شاهد رجلاً ، يرتدى القناع نفسه ..

قناع (رجل الليل) ..!!

ـ اسمحوا لى أن أستأذن للحظة ..

قالها (عمر) ونهض نحو النقطة التى رآه عندها ، وكان (أوتولا) قد نهض بدوره ، قائلاً :

ـ يجب أن ألحق بمحاضرتى ، هل تحب أن تأتى معى أيها (الصقر العجوز) ؟!

ابتسم (منصور) ، منذ متى لم يناده أحد بهذا اللقب الحميم ؟!

ـ اذهب أنت ، ليس فى رأسى سنتيمتر خال للتعقيدات العلمية التى ستقوم بطرحها ..

ـ ليكن ، أنت الخاسر يا صديقى ..

ومضى (أوتولا) مبتعدًا ، وعاد النادل ليتأكد أن الكوب قد شربه الرجل عن آخره ، ثم رفع هاتفًا محمولاً وطلب رقمًا ، وعندما رد الطرف الآخر قال :

ـ إنه فى الطريق الآن .. أجل ، شرب العصير وفيه القرص .. سيبدأ مفعوله بعد دقيقة واحدة .. انتظروه فى الطريق إلى القاعة ..

وبالفعل ، بعد دقيقة واحدة شعر (أوتولا) بأمعائه تكاد تنفجر ، فهرول نحو دورة المياه ، وقبل أن يصل إليها ، ومن نقطة عمياء فى مجاله البصرى ، دفعته يد إلى غرفة خالية ، تلقى داخلها ضربة فى غاية القوة على رأسه ، ضربة أفقدته الوعى ، ثم ...

أما (عمر) فقد هرول نحو الزحام ، وحاول أن يبحث بعينيه عن الرجل الذى كان يضع القناع ، فلم يعثر له على أثر ..

هل كان يهلوس ؟!

لا يعلم ..

ـ أنت هناك ، قف عندك ..

التفت (عمر) إلى مصدر الصوت الآمر بالإنجليزية ، وعندها رأى ثلة من رجال الأمن يهرولون نحوه وقد أشهر أحدهم مسدسًا ، ولما استشعر الخطر ، تراجع (عمر) مبتعدًا ، واندس وسط الزحام ، ليدخل القاعة ويغادرها من بابها الآخر ..

لماذا يطارده أمن الأمم المتحدة ؟!

بمجرد أن خرج من باب القاعة الآخر ، وجدهم يقتربون نحوه من نهاية الممر ، فانطلق (عمر) يهرول إلى الجهة الأخرى ، وهم يهتفون فيه من وراء ظهره ، بطريقة أثارت هلع بعض الحاضرين ، وانطلقت العديد من الصيحات المفزوعة ..

كل هذا لم يشعر به العميد (حرب) فى جلسته وحيدًا عند المقهى ، شاردًا فيما فات وما سيأتى ، عندما وجد ذلك الشاب المتأنق فى بذلة وربطة عنق يجلس أمامه ، ويبتسم ، ويحادثه بالعربية ، وباللهجة المصرية الصميمة :

ـ صباح الخير أيها الصقر العجوز ..!

مرتين فى يوم واحد ؟! يا له من محظوظ .. وإن كانت هذه المرة الثانية تحمل رائحة مريبة ، لم يحببها على الإطلاق ..

ـ من تكون ؟!

تساءل (منصور) ، فابتسم الشاب وتحدث فى لهجة واثقة ، كأنه مندوب مبيعات (لماذا وجد محدثه على هذا الشبه ؟! لا أحد يعلم ، حتى هو!) :

ـ (أحمد كامل) ، من المخابرات المصرية ..!

قطب (منصور) ، وأخذ يكبح جماح دهشته العارمة إذ يقول :

ـ وما الذى تريده المخابرات المصرية من شخص مثلى ؟!

قال مندوب المبيعات :

ـ ليس لدىَّ أدنى فكرة .. أنا هنا من أجل إحضـارك إلـى (القـاهرة) اليوم ، على وجه السرعة القصوى .. هذا كل ما أنا مكلف به ..

ـ ممن ؟! من الذى كلفك ؟!

ـ محظور علىَّ أن أصرح بأمر كهذا ، مع الأسف الشديد ..

قطب (منصور) وعاد يتساءل :

ـ وماذا لو رفضت أن أعود معك ؟!

أجابه مندوب المبيعات دون أن تتراجع ابتسامته أنملة :

ـ لدىَّ أوامر واضحة بأن أعود بك بأى طريقة ممكنة ..

قال (منصور) فى سخرية :

ـ حيًّا أو ميتًا ؟!

ـ بل حيًّا ، هذا أمر مؤكَّد ..

تراجع (منصور) بظهره إلى الخلف ، وعاد يسأل :

ـ وحدى ؟!

ـ أنا المكلف بك ، وهنـاك مـن هـو مكلف بـ (عمر زهران) .. كل شىء تم التخطيط له كما ينبغى ، لا تقلق ..

ـ وكيف يمكننى أن أثق بك يا عزيزى مندوب المبيعات ؟!

ـ مندوب الـ ... ماذا ؟!

ـ أعنى يا .. أيًّا كان اسمك ..!!

ـ ليس أمامك خيار آخر مع الأسف .. إنها الأوامر ..

عقد (منصور) ساعديه أمام صدره ، وهو يزن الأمور بميزان المنطق ، قبل أن يسأل :

ـ وما الذى تتوقع منى أن أفعله الآن ؟!

أجابه (أحمد كامل) :

ـ أن تنهض معى فى هدوء ، ونستقل سيارة أجرة إلى طريق المطـار ، حيث نستقل الطـائرة المتجهـة إلـى (القـاهرة) بعـد ساعتين من الآن ..

ـ يا لك من واثق !!

ـ إنها الأوامر ..

ـ لننهض إذن ..

قالها (منصور) وهو ينهض ، وتبعه (أحمد كامل) واقفًا ، وسارا معًا نحو بوابة الخروج و(منصور) يمسح المكان بعينيه بحثًا عن (عمر) دون أن يجد له أثرًا ..

لكن (عمر) رآه ..

(عمر) الذى راوغ مطارديه حتى فقدوا أثره ، أطل من سطح أحد المبانى على المقهى ، ورأى (منصور) يبتعد مع الشاب الغريب ، فأوغر هذا صدره ، كما أوغرت صدره الصرخة التى انطلقت من جهة غرفة جانبية يمكنه النظر إليها من هنا ، ثم شاهد تدافع رجال الأمن إليها ، وبينهم أمريكى بملابس مدنية ، يبدو وكأنه الصرامة تمشى على قدمين ..

داخل الغرفة كان (آدامز ماكبرايان) ينظر إلى جثة البروفيسور (أوتولا) الغارقة فى دمائها ، وقد تم انتزاع الرأس منها بمنتهى الوحشية ..

غمغم بنبرة خافتة لم يسمعها سواه :

ـ يا إله السماوات .. هذا ما كان ينقصنى .. قتيل فى اليوم الأول ..!!

ثم إنه استدار يسأل أحد رجال الأمن :

ـ أين ذهب رأسه ؟!

ـ لا نعلم يا سيدى ، لكن .. سنفتش جميع الحضور ..

زفر (آدامز) فى ضيق عارم ، ثم هتف :

ـ لا تتكلموا إلى أحد عما جرى ، ونظفوا المكان بسرعة ..

ـ ماذا نفعل بالجثة ؟!

ـ انقلوها إلى مكان آمن وبارد حتى لا تتعفن .. لو احتاج الأمر فسأجرى لها عملية التشريح الشرعى بنفسى .. واستمروا فى البحث عن الوغد الذى فقدتم أثره .. أريده فى غرفة الأمن قبل نهاية اليوم ..

ـ ماذا لو خرج من البوابة بمنتهى السهولة يا سيدى ؟!

ـ أى سؤال أخرق هذا ؟! كثفوا الحراسة عند بوابات الأمن ووزعوا صورته على الجميع ، انشروا عنه إعلانًا على الجدران إن أمكن ..

وغادر وهو يلعن كل شىء فى سره ..

ومن مكمنه رآه (عمر) يخرج نحو المنطقة التى أتى منها ، وقبل أن يفكر فيما حدث ، وقبل أن يتخذ أى قرار ، أتاه الصوت من وراء ظهره :

- عمت صباحًا يا سيد (عمر) ..

اللهجة المصرية القحة ، جعلته يستدير ليواجه الشاب المتـأنق الذى نطق بها ، والذى يبدو هو الآخر كمندوب مبيعات (لكن محدثه لم يكن فى بال رائق لتشبيهات كهذه على أى حـال ، لحسن حظه بالطبع!) ..

- .. أم أنك تفضل الاسم الجديد ، مسيو (أوبان) ؟!

- من أنت ؟!

- (رءوف حلمى) ، من المخابرات المصرية ..!

- ماذا تريدون منى ؟! ألم يكفكم كل ما حدث ؟!

- لم نكن مسئولين عن أى شىء حدث لك يا عزيزى ..

- ليكن ، اتركونى وشأنى ..

- مع الأسف ، ليست هذه الأوامر التى لدىَّ .. مطلوب منى أن أعود بك إلى (القاهرة) اليوم وليس غدًا ..

- اذهب وأخبر من أرسلك أننى لن أعود ..

قالهـا (عمر) فى عصبية شديدة ، فأشار له (رءوف) بكفيـه فى تهوين :

- على رسلك يا عزيزى .. ما هكذا يكون التفاهم ..

- هل أنت أصم ؟! أخبرتك أننى لن أعود معك ..!

- الأوامر التى لدىَّ صريحة .. مطلوب منى أن أعود بك بأى طريقة ممكنة ..

- أطلق علىَّ النار إذن ..

- لو اضطررت إلى فعل هذا ، فسأفعله ..

- حاول أيها المعتد بنفسك ..

قالها (عمر) ، ولم يشعر بنفسه إلا هو يركل محدثه فى وجهه ركلة ساحقة دفعته إلى الخلف بعيدًا ، ثم انطلق يركض مغادرًا السطح ، يأكل الدرجات الهابطة إلى أسفل بقدميه ، ثم يهرول بين الجموع المتحلقة أمام الأبواب وفى الممرات إلى حيث لا يعلم أين ..!!

وقف يلهث بجوار حائط جانبى ، وهو يفكر :

يبدو أنهم أرسلوا ليعودوا به هو والعميد (حرب) لغرض ما فى أنفسهم ..

لكن .. هل يعود إليهم ؟! الآن ؟!

بعد كل ما حدث ؟!

ليس قبل أن يعرف ويفهم كل شيء ..

ليس بعد أن بلغ هذا الحد ..

صافحت عيناه إعلانًا معلقًا عن تأجيل محاضرة البروفيسور (أوتولا رينبو) إلى أجل غير مسمى ، وشاهد على من وراء الجدار رجال الأمن يتناوبون على حمل جثة رجل مغطاة بملاءة من غرفة صغيرة ، ويبتعدون به نحو المنطقة الأمنية ، اقترب أكثر وسمع منهم ما أوقع قلبه في قدميه ..

(أوتولا) لقى نفس مصير الجنرالات الثلاث ورابعهم الدكتور (متشيل دنكان) ..

أعمدة المشروع السرى القديم SP1979 تنهار تباعًا ..

(رجل الليل) لا يزال صائلاً وجائلاً في الملعب على ما يبدو ..

فكر (عمر) للحظة ، وفى اللحظة التالية قرر ..

ونفذ ..

كان (آدامز ماكبرايان) يتحدث فى هاتفه الخلوى داخل غرفة الأمن ، ويقول :

ـ ليست لدىَّ معلومات حول ما إذا كانت جريمة القتل هذه ذات صلة بمنظمات إرهابية أم لا ، لكن .. احتواء الموقف مازال جاريًا ، على قدم وساق ..

سمع بعض الكلمات من الطرف الآخر فى (لانجلى) ، عندما وجده واقفًا أمامه فجأة ..

(عمر زهران) وقد رفع ذراعيه عاليًا فى تسليم ..

بحركة خاطفة أغلق (ماكبرايان) هاتفه ، واستل مسدسه فى مواجهة (عمر) ليهتف فى صوت عال :

ـ إياك أن تتحرك ..

ـ لن أفعل ، لقد جئت إلى هنا بقدمىَّ ..

دار (ماكبرايان) حوله ، واندفع نحوه ليلصق وجهه بالحائط فى حركة مدربة ، ثم إنه هتف :

ـ هل معك أسلحة ؟!

ـ كلاً ، على الإطلاق ..

جذبه (ماكبرايان) من كتفه نحوه ، وأجلسه دون أن يخفض مسدسه الموجه إليه ، وهتف :

ـ ما الذى تخفيه أنت ؟! ما هى انتماءاتك ومن هم شركاؤك ؟! وما الذى تنوون فعله فى هذا المؤتمر ؟!

بقى (عمر) للحظات ، قبل أن يقول :

ـ ليس لدى ما أقوله ..!!

صاح (ماكبرايان) وهو يلكمه فى وجهه بقوة :

ـ ستنطق ، وإلا ...

قال (عمر) لاهثًا :

ـ افعل ما تريد .. اقتلنى لو أحببت ..

والتقت العيون المتحدية ..

مرت ساعات و(ماكبرايان) يحاول استنطاق (عمر) دون جدوى ، لم يكن لدى (عمر) ما يقوله بالفعل ، أما (أبو معاذ) فقد نظر فى ساعته داخل المركز الصحفى الذى لم يغادره منذ دخل المبنى ، ونهض أخيرًا والشمس توشك على الغروب ..

اتجه على الفور نحو خيمة الاحتفالات ، وكانت الموسيقى الإفريقية الفلكلورية قد بدأت فى التصاعد ، وأكواب العصير والكحوليات قد بدأت تعرف طريقها إلى الأيدى ، غض (أبو معاذ)

بصره قدر ما استطاع عن النساء الكاسيات العاريات ، يسمل فى سره وحوقل وهو يتحسس ملمس جهاز التحكم عن بعد ، الدقيق جدًا فى جيبه ..

وخفق قلبه بقوة كلما اقترب أكثر ..

بعد دقائق ستسيل الكثير من الدماء ، وستتناثر الأشلاء ، وسيسجل التاريخ نصرًا جديدًا باسم الشيخ الكبير ..

(نصر من الله وفتح قريب) .. صدق الله العظيم ..

عند مدخل الخيمة ، نظر (أبو معاذ) فرأى تجمعًا هائلاً من عشرات الأشخاص فى داخلها ، وفكر فى أن الوقت يبدو مناسبًا الآن لكى يفجر كل شىء ..

وبالفعل ، مد يده إلى جيبه ..

تحسس الجهاز ، الزر ..

أخذ نفسًا عميقًا ، نطق بالشهادتين ، و ...

ضغط الزر ..

انتظر الانفجار ، لكنه لم يحدث ..!

ضغط الزر مرة أخرى ..

ولم يحدث شىء ..

أيكون هناك عطل ما ؟!

أو ... ؟!

ـ من فضلك تعال معنا يا سيدى .. بهدوء إن أذنت ..

نظر (أبومعاذ) ، وشاهد رجال الأمن المتحلقين حوله ، فـأيقن أن الخطة قد انكشفت بطريقة أو بأخرى ..

تبعهم فى هدوء ، وعندما قابله (ماكبرايـان) بلكمـة فـى وجهـه ، فهم منه كل شىء ..

لقد وشى أحد رجال الأمن بزميله ، وقد كان يشك فى تصرفاته منذ بداية اليوم ، هذا الزميل كان هو الذى مرر شحنة المتفجرات إلى مخزن المواد الغذائية بخيمة الاحتفالات ، وتحت الضغط اعترف الرجل بمكان الشحنة ، وتم الوصول إليها وإبطال مفعولها فى الوقت المناسب ، وهكذا حقنت كل الدماء التـى كـانت فـى طريقهـا لأن تهدر أنهارًا ..

ـ هل تعرفان بعضكما البعض ؟!

سـأل (ماكبرايـان) كـلاً مـن (عمـر) و(أبـى معـاذ) ، وأجـاب كلاهما بالنفى ..

قال (ماكبرايان) فى تهكم :

ـ .. هذا متوقع .. ربما كنتما تنتميان إلـى نفس التنظيم دون أن يعرف كـل منكمـا الآخـر ، هـذه عبقريـة (القـاعدة) وخلاياهـا العنقودية ..

ثم إنه أتبع فى لهجة رهيبة :

ـ .. لا أعرف هل تقولان الصدق أم أنكمـا محـض كـاذبَيْن .. ليس مهمتى أن أعرف على أى حال .. لقد انتهت مهمتـى بـالقبض عليكما ، أما مهمة استنطاق المعلومات التى تعرفانهـا ، والاعترافـات الثمينة التى يمكن أن ننالها منكما ، فليس مكانها هنـا .. وإنمـا هنـاك ، فى قلب الجحيم الملتهب ، حيث الزبانية لا يرحمون أحدًا ..

خفق قلب (عمر) ، ووقع قلب (أبى معاذ) فى قدميه ..

ـ .. هل تعرفان ما أتحدث عنه ؟!

غمغم (عمر) :

ـ (جوانتانامو) ؟!

هز (ماكبرايان) رأسه بالإيجاب ، وقال :

ـ يبدو أنك قد حضرت واجبـك جيدًا .. أجل ، سيتم ترحيلكمـا إلى هناك على متن طائرة خاصة تنطلق من فوق سـطح سـفارتنا

بعد ساعة واحدة فقط .. لابد أنكما سمعتما الكثير عن الفظائع التى تجرى هناك ، لكنى أستطيع أن أضمن لكما أن ما سمعتماه ليس إلا نقطة فى بحر ما ستريانه بعينيكما .. ستتمنيان الموت عن الذهاب إلى هناك .. شخصيًا أفضّل اسم (الجحيم) للتعبير عن المكان ، رغم أن الجحيم يمكن أن يكون مكانًا ألطف بكثير من (جوانتانامو) أيها العزيزان ..

كاد قلب (أبى معاذ) ينخلع بين ضلوعه ، سيلقى الكثير من الأصحاب هناك ، لكن .. إلى أى حد يمكنه أن يحتمل العذاب ؟!.

أما (عمر) ، فقد احتل عقله اسم واحد ، لرجل يملك سجن (جوانتانامو) كله ، ويتحكم فيه كملك متوج ..

(همفرى جويات) ..!

* * *

7ـ العربى التائه ..

تناول (ستيف) رشفة من القهوة العربية التى قدمها إليه (شكرى خورى) ، أقدم العرب المقيمين فى (نيويورك) ، المدينة التى اجتمعت فيها كل أعراق الأرض ..

قال (ستيف) ممتنًا ، وهو يقاوم مرارة النكهة على لسانه :

ـ شكرًا لك يا سيد (شكرى) .. إنك رجل كريم حقًّا ..

قال (شكرى) فى أريحية :

ـ على الرحب والسعة يا سيد (ستيف) ، إننا العرب كرماء بطبعنا .. أتمنى لو يغسل الإعلام الذى تنتمى إليه سمعتنا قليلاً .. لكن مع الأسف ، كله فى قبضة اليهود الذين لا همَّ لهم إلا تشويه سمعتنا ..

ابتسم (ستيف) قائلاً :

ـ إنكم ترون اليهود من خلال مرايا محدبة تعطيهم أحجامًا أكبر من أحجامهم الطبيعية بكثير يا سيد (شكرى) ..

هتف (شكرى) :

ـ لكننا لا نتجاوز الحقيقة أبدًا ..

تجاوز (ستيف) عن هذه النقطة ، ليتحدث فى الأمر الذى أتى من أجله :

ـ سنرى ما يمكننا فعله بهذا الصدد لاحقًا .. لكننى الآن أرغب بشدة فى الاستعلام منك عن شخص من العالم العربى ، لا أعرف إن كان بإمكانك مساعدتى أم لا ..

ضحك (شكرى) وقال :

ـ العالم العربى مكتظ بأكثر من ٢٠٠ مليون نسمة ، عزيزى (ستيف) .. أنا لا أعرفهم جميعًا بالطبع ..

قال (ستيف) :

ـ هو باب لابد أن أطرقه ، إنك تعرف أغلبية العرب الأمريكيين على الأقل ..

رفع (شكرى) حاجبيه ، وأشار بيده قائلاً :

ـ ليكن ، لنرى إن كان بإمكانى مساعدتك .. ما اسم هذا الشخص ؟!

قال (ستيف) :

ـ (عمر) .. (عمر زهران) ..

استغرق (شكرى) فى التفكير للحظات ، عائدًا إلى ذاكرته ، وانفك حاجباه العابسان فى النهاية إذ قال :

ـ لا أذكر أننى أعرف شخصًا بهذا الاسم ..

قال (ستيف) :

ـ هذا لا يخيب أملى .. لكن على كل حال ، سَلْ عن صاحب الاسم ، ولو عثرت فى طريقك على شىء إيجابى ، أعطنى مكالمة فقط ..

ـ بالتأكيد يا (ستيف) .. بالتأكيد ..

نهض (ستيف) قائلاً :

ـ اسمح لى بالاستئذان إذن ..

ـ إلى أين ؟! إن زوجتى تعد لنا طعام الغداء ..

ـ كلاً ، ورائى عمل كثير ..

ألح (شكرى) فى الدعوة وتحدث كثيرًا عن التقاليد العربية وكرم العرب ، لكن (ستيف) أصر على الرفض إذ كان لديه الكثير من العمل بالفعل ..

فى النهاية غادر (ستيف) ، ودلف (شكرى) إلى غرفة الاستقبال الثانية ، حيث كان ينتظره فيها (سعفان) ، أحد العرب المهاجرين ، وبصحبته شخص آخر لا يعرفه ..

رحب بهما (شكرى) وطلب قهوة عربية ، ثم تحدث ناظرًا للشخص الجديد ، النحيف ذى الشارب :

ـ أهذا من حدثتنى عنه ؟!

قال (سعفان) :

ـ أجل ، صديق وصل من مصر قريبًا ، ويطمع فى أن تعثر له على عمل مناسب ..

قال (شكرى) فى يُسْر :

ـ ليست هذه مشكلة .. لكن ، فيم كنت تعمل بالضبط فى مصر ؟!

قال الرجل بنبرة صوت جهورية تلازمه دومًا :

ـ لا شئ .. قضيت حياتى كلها عاطلاً ..

ـ هنا فى الولايات لا مكان لعاطل أو كسول .. سأجد لك عملاً هينًا بأجر معقول يا .. ما هو اسمك بالمناسبة ؟!

قال الرجل بنفس النبرة الجهورية :

ـ (نادر) .. (نادر الشريف) ..!

* * *

[تمت بحمد الله]

النقطة العمياء

من جبال (الألب) الأوروبيـة ، إلى إمارة صغيـرة على شاطئ الخليج العربى ، إلى جبال (أفغانستان) الوعرة ، إلى الثلوج المتساقطة فى شتاء (هلسنكى) ، إلى الحرارة الاستوائية فى أجواء (نيروبى) ، إلى المؤامـرات التى تحـاك فى ليـل (باريـس) ، إلى المـوت فى شـــوارع (تل أبيب) الخلفية ..

تفضّـل معنا على مسـئوليتك الخاصـة ، فقط حاول أن تكون حـذرًا من الرصاصـات التى تأتيك من الخلـف .. حيث النقطة العمياء ..



الثمن فى مصر 300

وما يعادلـه بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم



د . محمد سليمان عبد المالك

المكتب 17

إدارة المهام الخاصة

سلسلة روايات عصرية للشباب حافلة بالمغامرة والإثارة والتشويق

العدد القادم

الهروب إلى الجحيم



